

الدكتور نظمي لوقا

النقاء المسيحية والإسلام

الناشر

مكتبة غرب

٣١ شارع كامل صديق (البحالة)

تليفون ٩٠٢١٠٧

الدكتور نظمي لوقا

النقاء المسيحية والإسلام

مكتبة غريب

٣١١ شارع كامل متري، القاهرة
تليفون ٩٠٢١٠٧

الاهداء

إلى كل من يقدسون الحقيقة الموضوعية
ولا يعدلون بها شيئاً
وأيضاً إلى

نائل

الذى هم بالحققة الموضوعية
وقدسها منذ صباه الباكر ...

نظمى

أبواب الكتاب

مقدمة — لماذا هذه الكتب ؟

الباب الأول — الإنسان والأخلاق

الباب الثاني — وجاءت المسيحية

الباب الثالث — وجاء الإسلام ...

لماذا هذه الكتب ؟
مقدمة جادة الى قارىء جاد

لعل الأوفق ، قبل أن نسأل لماذا هذه الكتب ، أن نسأل :
— لمن هذه الكتب ؟

فليس كل من « يفك الخط » يصلح قارئاً لكل كتاب ، بل
لكل نوع من الكتب نوعه الميسر له من القراء .

ونقولها ابتداء ، وبلا مواربة :

هذه الكتب لانسان يحترم عقله بما هو إنسان ، ولا يجعل عليه
ججبابا ولا غشاوة من الأهواء ، أو الغواية ، أو التحامل .

وقد قدمنا السؤال عن لمن هذه الكتب ، لأن معرفة الجواب عن
هذا السؤال هي التي تفتح لنا باب الاجابة عن لماذا هذه الكتب .
فصاحب العقل البريء من الأغراض والأهواء والتحامل لا يرضى
بغير المعرفة الصحيحة الموضوعية بديلاً . أما من غلبت الأهواء على
عقله ، فهو شر أنواع الجهلاء . ذلك أن الطبيعة تأبى الفراغ .. وحيث
تغيب المعرفة الموضوعية تندفع الأكاذيب والأساطير والمفتريات
لملء الفراغ ... ويصدقها ذو الهوى ، لأنها توافق هواه وتبرر له
ما يرائي به نفسه من أنه ومن يلوذ بهم ويلوذون به هم وحدهم
أصحاب الصواب والفضائل ، وأن كل من عداهم متصفون بكل
نقيصة ...

وهذا هو النقص بعينه ؟ لأنه بذرة الجهل الأصيل الذى يشوه العقل ، ويزيف الحقائق ويقلبها ، وهى - ككل بذرة - سرعان ما تنمو شجرتها ، وتكثر فروعها ، وتتكاثر بمسا تلقيه الرياح اللواقح من بذور أشجار مماثلة فى السوء ، أو هى أسوأ وأدهى !

ومن هاهنا يتميز من يحترم عقله ممن يزدرى عقله ويتبع أهواءه فيلتوى بمعايير تفكيره لتوافق هذه الأهواء .. وهذا هو سوء النية بعينه !

من يحترم عقله يعرف ما عبرنا عنه فى مستهل كتاب لنا منذ أكثر من عشرين سنة بأنه :

- من أغلق عينيه دون النور ، يضرى عينيه ولا يضرى النور ! ولكن المسألة هنا أن من يغلق عينيه دون النور يرفض أن يرى النور ، فيصنع صنيع النعامة فيما يقال عن دفنها رأسها فى الرمال حتى لا ترى مالا تحب أن تراه .

وهذا هو سوء النية ، أو عدااء الحقيقة الموضوعية .

أما من يحترم عقله فيعلم أنه لا بد من اللجوء للموضوعية ، قوتا طبيعيا لفكره وروحه ، ولذا يرفض كل ما عداها ، ويريد أن يعرفها « كما هى » . فهى ضالته « كما هى » . ولا يريد أن يفرض عليها أى تحريف لإرضاء هوى نفسه ، لأن هوى نفسه هو معرفة

الحقيقة ، ولا مطلب له غير هذا . فهو ينقاد لها ويقنع بها ويسر .
أما ذو الهوى فيريد أن تنقاد له الحقيقة ، ولذا يصنعها أو يزيفها
أو يحرفها كي تروقه وترضى ذاتيته .

وهكذا ينصف ذو العقل عقله ولا يضلله . أما ذو الهوى فيخدع
نفسه ، ويفرح بهذا الخداع ، ويصدق ، ويهلل له ... ومثله لا
جدوى من مخاطبته باسم العقل ومعايره ، لأنه لا يريد العقل ولا
يحترمه ، ولا يريد إلا ما يطيب له ويروقه . فليس بينه وبين من
يخاطبه بالعقل ومعايره الموضوعية « أرض مشتركة » ...

ولنما الأرض المشتركة هي الموضوعية العقلية التي تكيل لجميع
أطراف القضية الواحدة بمكيال واحد . ولا تكون هذه الأرض
المشتركة إلا بين من يحترمون عقولهم .

فلهؤلاء إذن نكتب هذه الكتب ، من منطلق العقل الموضوعي
وطلبا لما يرضيه وينزل على حكمه .

أما لماذا هذه الكتب . فسؤال ما أيسر الإجابة عنه بعد أن
عرفنا لمن نكتبها .

نكتبها تعريفا بالحقيقة الموضوعية للعقائد . فكما كتبت أنا
القبطي عن الإسلام ، كتبت « على مائدة المسيح » ، بعين المنهج
العقلي الموضوعي .

والعارف لا يحتاج إلى تعريف . بل غير العارف هو الذى .
إلى تعريفه ما يجهله . و لكن ، شرط غير العارف هنا ألا يكون مصرا
على الجهل متشبثا به ، وان يكون — على العكس من ذلك — مشوقاً
إلى المعرفة الصحيحة ، خالياً من رغبة صريحة أو مستترة فى تنقص
العقيدة التى لا يدين بها .

ومما لا يخفى أن الأحقق عدو نفسه ، وهو نكبة على من ينجح
بهوى قلبه إلى نصرته . ومن آيات ذلك أنه أشبه بالمرآة الملتوية
السطح التى تشوه ما ينطبع فيها من الأشكال . وهذا حاله مع ما يدين
به من العقائد ! فتتحول العقيدة السوية المستقيمة فى نفسه الملتوية إلى
شئ لا استواء فيه ولا استقامة ولا نزاهة ولا عدل . يخال فرط
ولاء لدينه أن يتحامل على الأديان الأخرى ويرى فيها كل نقیصة ،
ويفرغها من كل سمة طيبة وخلق كريم .. فيخفى عليه أنه ما من
دين سوى يسىغ الظلم والافتراء أو يتقرب إليه المؤمنون به بالتحامل
والتشويه والكذب . وإنما المتدين حقاً — أيا كانت ديانته — هو
الذى يسمو به تدينه عن هذا الإسفاف ، ويعصمه عن تحريف
الحقيقة أو تشويهها . فليس برا بدين أى متدين أن يزور له احتكار
كل حسنة باضفاء كل نقیصه على ما يخالفه من الأديان .

فالواثق بدينه لا يتحاشى معرفة غيره من الأديان معرفة صادقة
موضوعية ، لأنه لا يخشى أن يقلل هذا من قيمة دينه ومتانة إيمانه به .

ولم يزل الافتراء والظلم آية على فساد التدين بأى دين . لأن
التدين الحق يسمو بصاحبه . فان لم يكن دافع سمو وداعيه نراهة ،
فهذا مطعن على نفسية المنتسب زورا إلى هذا الدين . لأنه فى هذه
الحالة لا يمثل دينه فعلا ، بل يمثل به ويشوّهه ...

وهذا ما يصنعه التعصب الأعمى على يد الحمقى ، الذين يسيئون
إلى أديانهم وهم يظنون أنهم يفرطون فى إكرامها والبر بها . وهكذا
الصديق الجاهل دائماً ...

وتقترن بحالة التعصب — التى هى حالة تحامل وسوء ظن وسوء
نية أصلا — حالة أخرى يسمونها فى علم النفس سلوكية الإسقاط .
فالمتعصب يسقط تعصبه على الفريق الآخر الذى يتحامل عليه ،
وتكون النتيجة أن يرمى ذلك الفريق الآخر بما هو غارق فيه فعلا من
التعصب . وقد يما قيل « رمتنى بدائها وانسلت ! »

وهكذا تحدث الحلقة المفرغة أو الدائرة الحبيثة : الجهل وسوء
النية ينتجان التحامل والتعصب ، وعملية الإسقاط ترمى الطرف الآخر
بالتعصب ، وفى ضوءه يفسر كل سلوك للطرف الآخر مهما كان
بريئاً . فيكون توهم العداء حيث لاعداء ، أو تضخيم العداء حيث
لا توجد إلا بوادر ضئيلة الحجم ، كمستصغر الشرر الذى لا يلبث أن
يخمّد ، لولا أن ينفخ فيه النافخون ، فاذا به حريق هائل .



وأما وقد فرغنا من هذه العموميات التي قد تصدق على أى فريق فى بلد تجتمع فيه أكثر من ديانة . وأحياناً أكثر من طائفة أو نحلة من دين واحد - كحال البلاد التي تجتمع فيها البروتستانت والكاثوليك . أو أهل السنة والشيعة ... فقد بقى علينا أن ننتقل من التعميم إلى التخصيص .

فى مصر يتعايش المسيحيون والمسلمون ، من أبناء الوطن الواحد ، وكلاهما فى وطنه أصيل عريق المنبت .

وفى مصر حرية اعتقاد مكفولة مرعية . وليس الأمر فى أى وقت أمر فتنة أحد عن دينه . ولا أمر تصادم فى صميم العقيدة .. ففصل هذا كله « لكم دينكم ولى دين » . والدينان يجمعهما التوحيد وإن كان لكل من الديانتين أسلوبها الخاص فى التوحيد . ولا سبيل إلى رفع هذا التباين فى « أسلوب » التوحيد ، لأن مرجعه ليس إلى الحاجة بالعقل الموضوعى ، بل إلى الايمان والتسليم . وكل امرئ موكل فى هذا إلى إيمانه . وكل حزب بما لديهم فرحون .

فقضية اللاهوت إذن ليست محل بحث . وإنما المسألة التي تحتاج إلى تنوير وتوضيح - فى رأى - هى المسألة التي يمكن أن تكون محل أخذ ورد ، لأنها تتعلق بالمعيشة والتعامل ، أى المعاملة . ألا وهى مسألة الأخلاق ، أو السلوك ، فى ضوء كل من المسيحية والإسلام .

ولأمر ما قيل إن الدين المعاملة .

ففى المعاملة تتجسد روح الدين على صورة سلوك عملى .
فالعبرة علاقة المؤمن بربه . والمعاملة علاقة المؤمن بغيره من الناس .
وفق الدستور الذى رسمه له الدين . فى التعامل إذن يتبدى مقدار
تحرى المرء روح دينه ومبادئه ، وتخلصه من أهواء أنانيته انفاذا لهذه
المبادئ الكلية العليا .

فغاية كل دين السمو بالنفس الانسانية إلى الله بالتعبد من ناحية
وبمكارم الأخلاق فى التعامل مع الناس من ناحية أخرى .

وجانب العبادة مجاله ومرجعه إلى الإيمان . وهو ليس مما يحسم
بالعقل الموضوعى ، الذى عرفنا أنه « الأرض المشتركة » بين
الناس كافة ، مهما تباينت عقائدهم الإيمانية .

أما جانب الأخلاق فهو موضوع دراسة عقلية ، لتحديد ينابيعها
فى هذه الديانة وفى تلك .

وبذلك يتبين لنا السلوك المثالى فى كل من العقيدتين ، فلا يسبق
إلى ذهن أحد من الفريقين سوء الظن المبني على الجهل بمكارم
الأخلاق التى يملئها كل دين من الدينين على المؤمنين به ... فحيث
تشع أنوار المعرفة الموضوعية ، لا مكان لحفافيش سوء الظن التى
لا تعيش إلا فى ظلمات الجهل وسوء النية .

وهذا ما سنعالجه بأسلوب علمي ، أي بأسلوب عقلي موضوعي
في هذه الصفحات ... التي نوجهها إلى كل من يحترم عقله ، فلا
يرضى له الجهالة ، وينزهه عن سوء الظن والافتراء ؟
وسلام على الصادقين .

- ١ -

الانسان والأخلاق

الفرق بين الانسان والكلب !

كثيراً ما يمدح الناس أنواعاً من السلوك في أجناس من الحيوان
ولعل أقرب هذه الحيوانات صلة بالإنسان هو الكلب . فهم يضربون
به المثل في الوفاء لصاحبه .

أليس هذا الشاعر البدوي ، الذي وفد على بغداد مادحاً بشعره
أحد أقطابها من الأمراء العظام ظن أنه بلغ في مدحه الغاية ، حين
قال له :

— أنت كالكلب في حفاظك للسود وكالتيس في قراع
الخطوب !

وضحك الناس من بداوته الغفل وذوقه الخشن . ولكن
المدلول عليه من هذه الفطرة الساذجة أن عامة الناس يرون صفات
حميدة في طباع بعض الحيوانات ، ويرون هذه الحيوانات تفوق
الإنسان في هذا الذي تميزت به من تلك السجايا .

ولكن من حقنا أن ندقق ، ونسأل : ما علة هذا التفوق ؟ لماذا
يتفوق الكلب على الإنسان في كثير من الأحيان من حيث هذا
الوفاء ، أو الارتباط بالصاحب ؟ والتفاني في الولاء له ، إلى الحد
الذي جعل بعض الكلاب تنقذ حياة أصحابها ، مخاطرة بحياتها ؟
أقول إذا دققنا النظر وجدنا مرجع هذا التفوق إلى مصدر

السلوك من التكوين الطبيعى للحيوان ، واختلافه عن التكوين الطبيعى
للإنسان .

فارتباط الكلب بأشخاص معينين مرجعه إلى تكوينه الانفعالى
المخض ، الذى لا يخالطه أى دور للعقل النظرى ، ولا للتصور
العقلى .

فالكلب لا يوجد فى تكوينه وظيفة تقوم بالتقويم ، أو وزن
الأمور والأشخاص بحسب معايير كلية يستوى فى ميزانها الناس
جميعاً . بل كل وزنه أو معياره للأشخاص أن هذا صاحبه أو أليفه
الذى يعرفه من رائحته . فهو عنده « قطب » الإقبال والإعزاز .
فمن رضى عنه هذا القطب ووالاه صار عنده مقبولا ، ودخات
رائحته فى « نخانة » الروائح المقبولة . أما غير أولئك ، فيلقاهم بالنباح
أو بما هو شر من النباح .

ويهش الكلب لمن يلقى له بالقطعة من العظم أو اللحم ، فينشغل
بها ، مع أن هذا الشخص قد يكون عدوا ، وقد يكون اللحم الذى
ألقاه إليه منطويا على سم زعاف .

وقد يكون الكلب من السلالات المدللة ، فيأنس للمداعبة
والملاطفة . أو يكون من السلالات الشرسة فلا يغنى معه شيء من
ذلك .

. وفى جميع الأحوال نجد مصدر بقاء الكلب على عهد صاحبه لا يخونه ولا يخفوه ولا ينقلب عليه مسألة مرجعها إلى ضيق أفقه بحكم تكوينه الانفعالى . فهو لا يتصرف على أساس قاعدة كلية ومقاييس عامة . لأن التعميم ، أو الاحتكام إلى القواعد أو المبادئ الكلية عملية عقلية منطقية لا وجود لها عند الكلب . بل لا وجود لها عند سائر صنوف الحيوان ، فيما عدا الإنسان ، الذى صفته الخاصة أنه حيوان ناطق ، أى عاقل .

ورب قائل يقول ، كما يقول كثيرون من عامة الناس :

— ولكن للحيوان عقلا أو ذكاء

وهنا ينبغى أن ننبه إلى أن ذكاء الحيوان ذكاء عملى . مرتبط بالمواقف والاحساسات الجزئية . وأن الموجه الأكبر لتصرفاته إنما هو الغريزة .

ولعل الغريزة هى السبب فيما يذهب إليه عامة الناس فى كثير من الأحيان ، من اعتبار بعض الحشرات قذرة يتحسرون على أن الإنسان لا يحسن الاقتداء بها .

ومن ذا الذى لا يعرف للنحل أو النمل دأبه الشديد فى العمل بجد واستماتة . واتباعه نظاما لا يختل قيد شعرة . فى حين يتكاسل كثيرون من الناس فى عملهم ، أو تسود أعمالهم وتصرفاتهم الفوضى المخجلة . ولكن مرجع هذا الدأب فى العمل ، وهذا النظام فى كل

تصرف ، إلى الغريزة التي لا تملك هذه الحشرة أو تلك لها صدا ولا مقاومة ولا قدرة لديها للخروج على سلطانها .

أما الإنسان فله حرية الاختيار . ويملك الرجوع عن القرار الذي اتخذه ، لأنه هو الذي يتخذ القرارات . ولا تملكها الغريزة عليه ، ولذا يستطيع أن يبدل مسالكه ومواقفه من الأشياء والأشخاص . وكثيراً ما يستخدم هذه القدرة على التبديل — سواء بالصواب أو الخطأ — فيوصف سلوكه بالتذبذب أو نكث العهد أو ما إلى ذلك مما يثنيه عنه بعض أنواع الحيوان .

ذلك أن الحيوان سجين غريزته — سواء راقبنا هذه الغريزة وأفدنا منها أو ساءتنا كغريزة العقرب مثلاً التي تلدغ الدن والسني بلا تمييز — فهو لا يملك اتخاذ قراراته ، بل غريزته هي التي تقرر له . فهو في الحقيقة مجرد أداة عمياء صماء لغريزته . وهو منزّه عن الخطأ فيها لهذا السبب . أما الإنسان فيملك إصدار قراراته ، بملء حرية ، وبقدرته على التصور العقلي ، وعلى الذكاء النظري . ولذا فهو عرضة لأن يصيب ويخطئ . ويملك تبديل سلوكه باختيار خطة جديدة ، سواء أكان هذا التعديل للأحسن أو الأسوأ .

ومقاييس الأحسن والأسوأ ، أو مقاييس الخطأ والصواب هنا مرجعها إلى معايير لا توجد إلا في العقل النظري أو المنطقي الذي اختص به الإنسان . فهذه المعايير تختلف عن المعايير الانفعالية — أي الذاتية — التي لدى الحيوان .

فالمعايير الانفعالية لا .: أن تكون ذاتية ، لأن الأنفعال خاص بالضرورة بذات واحد . وليس شيئاً عاماً مشتركاً بين جميع الذوات أو الأفراد .

فارتباط كلب معين بك مثلاً ، ارتباط انفعالي خاص بهذا الكلب بالذات ، ولا يعم بالضرورة غيره من أفراد جنس الكلاب فهو إذن ارتباط ذاتي .

والكلب — بما هو حيوان غير عاقل — لا وجود لديه لما نسميه الأفكار أو المعاني المجردة ، أو المبادئ الكلية . فعلاقاته جميعاً ذاتية لا كلية فيها . فهو مثلاً لا يعرف التسامح من حيث هو مبدأ يطبقه على الكافة . وإن مارس التسامح في الحدود الذاتية معك شخصياً ، لأن ارتباطه بشخصك ، لا بمبدأ عام . فقد تركله أنت في لحظة ضيق ، فلا يزجر ولا يكشر عن أنيابه . ويلوذ حزينا بالانزواء تحت المقعد أو المائدة أو الفراش . أما إن تركله أى شخص لا ارتباط له به ، فلا يمكن أن يتسامح معه مطلقاً .

فالحيوان ذاتي في سلوكه ، مغرق في ذاتيته . ونحن الذين نزن هذا السلوك الذاتي بمقاييسنا الإنسانية الكلية ، فنصف الكلب بالوفاء ، ونصف القط بالخيانة ، ونصف الخنزير بالخسة ، وهكذا .

والحقيقة أن هذه المقاييس أو الأحكام الخلقية التي نصف بها

الحيوان إنما هي أحكام بشرية ، بمقاييس بشرية ، لا وجود لها عند الحيوان الذى تنسب إليه هذه الأخلاق .

وهنا يتضح لنا — أكثر من ذى قبل — الفرق الحاسم بين الإنسان والحيوان .

فنحن قادرون على إصدار الأحكام الخلقية ، لأننا نملك المعايير أو الموازين العقلية الكلية التى نزن بها أنواع الأفعال والسلوك ونملك حرية الاختيار . اختيار الالتزام بمبادئ ومعايير معينة ، أو عدم الالتزام بها . أما الحيوان فلا يملك هذه المعايير العقلية الكلية ، ولا يستطيع أن « يفهمها » ، وبالتالي ليست لديه حرية الالتزام بها أو عدم الالتزام بها . لأنه مقيد قيدياً أبدياً بسلطان غريزته وذاتية انفعالاته وتصرفاته . فهذه الذاتية هي أقصى حدوده ، وهى معياره الوحيد فى كل شيء ...

ولكننا نخط بينهما أحيانا !

أعنى أننا نخلط أحيانا - وأحيانا كثيرة جداً للأسف الشديد -
بين الناس والكلاب ، أو الحيوانات الأليفة عموماً ، في المعاملة ،
والتنشئة .

فكما نعلم الكلاب الأليفة أصول النظافة ، ونلزمها باتباع نظام
معين نمليه عليها فيما يجوز لها أن تفعله ، وما لايجوز لها أن تفعله ،
كذلك نعلم أولادنا وهم صغار تلك الأمور الضرورية ؛

وطبيعى أننا نجد بين صغارنا وبين تلك الحيوانات شبيهاً ،
فنصطنع لكلية أسلوباً واحداً في شيء نسميه التربية ، وهو في
حقيقته « تدريب » ..

وذلك في مرحلة معينة موقف له عذره أو مبرره . ولكن الخطأ
الجسيم في الانخداع بهذا التشابه الظاهري في المرحلة الأولى من
الطفولة ، فيخفى عنا أن هذه « الشتلة » الطبيعة كالعشب الرخو .
إنما هي مرحلة . فلا تلبث أن تتطور « الشتلة » أطواراً أخرى ،
تغدو فيها سندية ضخمة ، وتظهر لها صفات وقدرات لا صلة
بينها وبين صفات العشب وأطواره .

فالطفل الذى يشبه في ذاتيته وسلوكه الانفعالى الكثير من
الحيوانات العجباء ، يحمل في داخله استعدادات كامنة لا نظير لها

عند هذه الحيوانات . وبالنمو السليم تتحول هذه الاستعدادات إلى قدرات عليا ، تجعله من مستوى مختلف تماما عن مستوى الحيوان الأعجم ، هو مستوى « الموضوعية الكلية » أى العقل النظرى الذى يفهم وينشئ نظريات العلم ، ويستخدم المعايير الكلية التى لا ترتبط بانفعالاته الذاتية ، ولا تتأثر بها .

أقول أن الخطأ الجسيم أننا نغفل عن هذه « النظرة المستقبلية » إلى الطفل ، ونستمر فى معاملته وكأنه كلب ندر به ، ونصبه صبا فى قوالب من الأوامر والنواهي : افعل كذا عند هذا الموقف المعين ولا تفعل كذا عند ذاك الموقف المعين .

وبهذا الإملاء نصادر تلقائية الناشئ ، ونفرض عليه إرادتنا من الخارج ، بحيث يغدو — إن نجحنا — أشبه بآلة صماء ، لا إرادة لها ، بل يريد لها ويقرر لها المسيطرون عليها .

وقد تملى لنا غفائنا فى هذه الحالة أن نفرح أشد الفرح إن وجدنا انقيادا من الناشئ ، بحيث يبدو « مهذبا » حسن السير والسلوك ... كأنه الكلب المدرب تدريباً حسناً على ألعاب السيرك !

والواقع أننا نكون بهذا « النجاح » المزعوم قد حولنا ذلك الناشئ إلى كلب من كلاب السيرك المدربة فعلا !

فكلاهما لا يصنعان ما يريدان ، بل ما نريد نحن منهما . وكلاهما مصدر انقياده وطاعته هو ارتباطه الانفعالى أو العاطفى بنا ، بحيث

يريد إرضاءنا ، ويجد سعادته كلها في رضانا عنه وسرورنا به
وتصفيقنا له !

وهذا - بطبيعة الحال - مسخ للطبيعة الإنسانية ما بعده مسخ .
وبذلك نكون قد ضحينا بسمو المستوى الانساني الحر والمرتبط
بالموضوعية والكلية ، قربانا على مذبح صنم هو « الفعل اللائق » .
ولعل سائلا يسأل :

- ولماذا هو مسخ ؟ أليس الفعل اللائق أفضل من الفعل
المستهجن ؟

وهذان في الحقيقة سؤالان . نبدأ بثانيهما . فنقول أن قيمة أو
أهمية الفعل أنه يدل على شخصية أو نفسية الفاعل . بحيث يكون
الفعل « تعبيراً » عن إرادته الحرة . أما الفعل الذي لا يريده فاعله ،
بل يفعله تحت تأثير إرادة أخرى مهيمنة أو ضاغطة عليه ، فهو
فعل الشخص الذي يسيطر عليه في الواقع وليس فعله هو . بدليل
أنه لو زال تأثير هذه السيطرة ، لصنع ذلك الشخص نفسه شيئاً
آخر :

فالفاعل لكل فعل باملاء أو سيطرة من آخر ، ليس فاعل
ذلك الفعل في الحقيقة ، بل هو « مفعول به أو بواسطته » لا أكثر... !

وهكذا يتحول البشر إلى آلات ، لأن الآلات هي التي تنفذ

ما يراد منها بغير اقتناع وبغير حرية اختيار . وهذا هو الرق الأصيل الذى هو أفحش وأقبح من الرق الذى كان سائداً فى عهود أسواق النخاسين . لأن الرقيق الذى كان يباع ويشترى كان يضمّر فى نفسه التمرد ، أى جذوة الحرية . أما الناشئ الذى نطبعه على السلوك اللائق بالتدريب الصارم حتى يصبح طبعاً ثانياً له ، فلا وجود لهذه الجذوة لديه ، لأنه تحول « داخليا » إلى عبد ، أو كلب ، بالفعل ! وهذا فى حد ذاته يفسر لنا ظاهرة المسخ . فليس المسخ سوى تعطيل الملكات والقدرات . وأى فرق بين ذلك الذى يسميه بعض الناس « تهذيباً » و « تربية حسنة » وبين ما كان يصنعه « نيطه » صانع العاهات فى رواية نجيب محفوظ !

لا فرق على الإطلاق !

فبذلك يتم « تثبيت » الناشئ على المستوى الانفعالى الذاتى ، ويكون مقياسه للصواب والخطأ ما يرضى عنه « قطب » ولائه وارتباطه الانفعالى .. أو المسيطر عليه نفسياً .. كالأم أو الأب . أو المعلم . أو الرأى العام فى المجتمع عموماً .. ويظل سلوكه فى حدود هذا المعيار الذاتى ، فلا يرقى إلى الموضوعية التى قد يكون من الناحية المعرفية أو التعليمية قد وصل إليها .

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا فى هذا المقام أن الآباء والأمهات الذين ينشئون أولادهم على هذا النحو الانفعالى الذاتى ، يغرسون

فيهم الذاتية بكل المغريات . فعندما يحثونهم على الجدل في الدراسة ،
تكون نصيحتهم لهم دائماً :

— اجتهد كي تنفع نفسك وتنال الجاه والثراء العريض ...
ولا يحدثونه أبداً عن أهمية اسداء النفع للناس .

وبذلك تم وثنية الذاتية . أى عبادتها كأنها صنم . والاعتقاد
بأنها غاية الغايات من كل نشاط وكدح في الحياة . أى أن « المنفعة
الذاتية » هي القيمة القصوى .

فعليه أن يجد ويجتهد لينفع نفسه ويبنى الثروة . أى أن المنفعة
الشخصية ولاسيما الثروة هي الغاية القصوى . أما الاجتهاد فوسيلة .

وبالذكاء العملي الذي لا يسترشد ولا يستنير بالمبادئ الكلية ،
لا يجد هذا الشخص ما يقيده بالوسيلة المعينة إذا ما توسم وسيلة
أخرى توصله إلى الغاية المنشودة ، بل المعبودة !
وهكذا تقترن الذاتية اقترانا طبيعياً جداً بالوصولية . فالغاية
تبرر الوسيلة .

ومن هنا ينشأ ذيل آخر من ذيول الذاتية ، بالإضافة إلى الذيل
الأول وهو الوصولية . وذلك الذيل هو النفاق . ففي وسعه وهو
يتخذ الوسائل غير المشروعة أن يتظاهر بالمحافظة على المسلك اللائق
كى لا يفقد رضا من يحرص على رضاهم . فان استطاع ذلك اعتقد

أنه « جمع بين الحسنيين » ... جمع بين وصوله إلى المنفعة ، وبين المحافظة على المظهر أو السمعة ، بالحيلة والتحايل .

وهؤلاء الذاتيون يعينهم المظهر لا الخبر . ويعيشون لما يبدو عليه ، لا لما يكونونه فعلا . ولذا كانت « الفضيحة » لا « الخطيئة » هي الكارثة الكبرى وموضوع فزعهم الأكبر ... وكانت صيغة أفضل دعاء عندهم « دوام السر » أو « وقاك الله شر الفضيحة ! » وأمثالهم لا يطلبون الصواب بمقاييس كلية للصواب ، بل يطلبون ما يوافق هواهم الذاتي ، وإن علموا أنه غير مشروع ، إما عرفا ، أو قانونا ، أو دينا . وكل ما يتمنونه هو « أن يسترها الله » فيجنبهم الافتضاح ...

وينبغي أن نلاحظ أن التجاءهم للابتهال أو الدعاء إلى الله ، ليس عن تقوى وانقياد له سبحانه ، بل بنية « استخدامه » جل جلاله للتستر عليهم وإنجاح مآربهم الذاتية ، التي قد تناقض وصاياهم الإلهية على خط مستقيم !

ومثل الناشئين على هذا النحو من الذاتية ، تركز ذاتيتهم في السلوك مع التقدم في مراحل العمر ، حتى إذا تلاشى سلطان آلمهم ومن تعلقوا بهم في الطفولة والصبا ، بقي لهم ارتباط واحد ومعيار واحد هو صميم الذاتية ، لأنه الارتباط بمنفعتهم الشخصية ولذاتهم التي تشبه لذات الحيوان .

فلئن كان الحيوان بسلوكه الذاتي الذي لا يقدر على سلوك
سواه لا يرقى إلى مستوى الأخلاق بمعنى الكلمة ، لأنه مستوى لا بد
أن يصدر عن قاعدة موضوعية كلية لا تتأثر بالانفعالات الذاتية .
فكذلك هؤلاء الذاتيون في سلوكهم وفعالهم جميعا ... بشر مسخوا
حيوانات عجماء . فهم أيضا لا خلاق لهم . ولكن الحيوان له عذره ،
لأنه ليس ميسرأ إلا لهذا الذي جبلت عليه طبيعته . فهو سوى لا مسخ
فيه . أما هؤلاء البشر فالمفروض أن يكون لهم مستوى خلقى ،
وقعودهم عنه إنما هو عيب فيهم وقصور يحسب عليهم .

أجل ، قد تكون هذه جناية التربية السيئة ، التي تظن أنها
أحسن . وهذا في حد ذاته خليك أن ينبها إلى خطورة التربية . وأن
نعى أننا لا يحق لنا أن نجبر أولادنا على ما يريحنا ، وأن ننظر إليهم
منذ البداية « نظرة مستقبلية » تعدهم لأطوارها المقبلة ، لا تكبل هذه
التطور .

ولندكر أن الحيوانات تلد . أما الإنسان فيربي . والتربية لا بد
لها من بصيرة ، وبعد نظر . وأن يكون المربي في خدمة النمو
السوى للناشئ . فنحن نربيه لنفسه وزمانه ، لا لأنفسنا ولا لزماننا .

مجتمع الأقران ...

يكون إحساس الطفل منذ ولادته ببيئته المحيطة به إحساس كائن
مستهلك ، يمتص من البيئة التي تحيط به ما ينميه ، وما يرضيه .
فهذه البيئة مصدر لما يلذه أو ما يؤله . فكل علاقته بمن حوله وما
حوله علاقة رضا أو نفور أو خوف .

وهذه كلها علاقات ذاتية . فهذا الشيء أو هذا الشخص « دح »
أى حسن لأنه يسره أو يلذه ، وذاك الشخص أو الشيء « كخ » أى
رديء لأنه يغضبه أو لا ينقاد لرغباته أو يؤله ... ولا تخرج الأمور
جميعاً عن هذا النطاق الانفعالي الدائى .

بل إن هذه الانفعالات الذاتية ليست ثابتة ، فصفة الشخص
أو الشيء عنده بأنه « دح » أو « كخ » ليست صفة ثابتة للشخص أو
الشيء نفسه . بل تتغير حسب الظروف أى الحوادث أو ردود
الفعل الجزئية من النقيض . فاما — مثلاً — « دح » فى معظم الأوقات
ولكن ما أن ترفض له رغبة حتى تنقلب إلى « كخ » ، ويصب
عليها غضبه ، فالانفعالات الذاتية بنت لحظتها ، ومن شأنها التغير
والقلب . فمعارها الوحيد — من حيث هى انفعالات — إحساس
الطفل الصغير فى لحظته أو حينه .

ولا تبدأ أوصاف الأشياء — ما بين الحسن والرداءة — تثبت فى
نظره للأشياء والأشخاص أنفسهم وتستقر على حال إلا بعد فترة ،

وذلك حين يتم لديه إدراك انفصال ذاته عن الأشياء ، وأن للأشياء وجودها المستقل — أى وجودها الموضوعى — بصفات يخلعها عليها من تجربته معها .

ولكن هذه الصفات تظل ثمرة انفعالاته بالأشياء وخبرته بها . وتظل علاقاته بالأشخاص والأشياء علاقات انفعالية ذاتية خالصة .

وما يتلقاه من الوالدين من توجيهات وتدريبات يكون مرتبطاً لديه أيضاً بانفعالاته ، التى هى — فى هذه المرحلة الباكورة — كل طاقاته تقريباً ، وتقرن بكل إدراكاته . فهو يستجيب — حين يستجيب — للتوجيهات ، كى يظفر برضا الموجهين له أو المشرفين عليه . ويتجنب ما يغضبهم استجلاباً لهذا الرضا .

وهذا فى حد ذاته يدل على أنه غارق أو مستغرق تماماً فى العلاقات الانفعالية الذاتية المحض ، أخذاً وعطاءً ، أى بطريقة تبادلية بينه وبين المحيطين به . فهذه البيئة هى مجال نشاطه الذى يتسم أساساً بالانفعالية . وكل قيمتها عنده أنها هذا المجال المغذى لانفعالاته التى يعيش بها ولها ...

ويظل الطفل هكذا .. حتى إذا اختلط بمجتمع جديد ، وصار عضواً فيه ، وهو مجتمع الأنداد — أى مجتمع أقران له فى مثل عمره — فى الحضانة أو فى مدارس الأطفال ، ظلت هذه النظرة إلى

البيئة وإلى المحيطين به ، وظلت هذه الانفعالية الذاتية الطابع السائد لديه . وهذا طبيعي جدا ، لأن هذه الانفعالية الذاتية هي طاقة نشاطه كلها حتى الآن ... وإداراكااته وخبراته المعرفية كلها مقترنة بها ولا تنفصل عنها . أى أنها إدراكات غير محايدة وغير مجردة من مشاعر الإقبال أو النفور .

وعلى هذا المنوال يبدأ فى نسج علاقاته فى مجتمع الأقران هذا . ويبدأ بفرض رغباته وانفعالاته على الآخرين ، وعندئذ يجد نتائج أو ردود أفعال مختلفة تشعره بالحيرة أو الغرابة فى هذه الخبرات الجديدة .

فى بيئة البيت كان محط الأنظار ومحور الاهتمام . أما هنا فالوضع مختلف . كان سابقاً أشبه بالنجم الذى تدور حوله كواكب البيئة . أما هنا فالموجودون فى البيئة كل واحد منهم يعد نفسه نجما وينتظر من الباقين أن يدوروا حوله .

هو ها هنا إذن — فى مجتمع الأقران — ليس القوة الأساسية . بل كل ند من أنداده مركز قوة . وبتعدد مراكز القوى تفرض الظروف على الطفل سياسة جديدة ، أى نمطا جديدا من السلوك كى يتسنى له الاستمرار .

وأول شرط فى شروط الاستمرار فى بيئة ما هو « التجانس » أو حداً أدنى من الانسجام مع العلاقات التى تفرضها هذه البيئة .

فهو شخصياً انفعالي ذاتي ، وهم أيضاً انفعاليون ذاتيون ،
فلابد من أحد أمرين : إما صراع وتنازع بين مراكز هذه القوى.
الانفعالية الذاتية ، وأما أساس جديد للتعايش السلمي ، تنزل به كل
قوة من هذه القوى عن شيء من ذاتيتها أو رغباتها التي تتركز حولها.
انفعالاتها ، كي توجد « أرض مشتركة » أو « منطقة محايدة » يتم
فيها التفاهم والتآلف .

وهذا ما لا مفر من حدوثه أينما كانت هناك قوى متقاربة ،
سواء بين الأطفال ، أو بين الدول ! فلما التصادم وإما التعايش
السلمي عن طريق خلق تلك الأرضية المشتركة للتفاهم والتآلف ...

ولكن هذا التآلف بين الأطفال في هذه الحالات ، شأنه شأن
التعايش السلمي بين الدول ، لا يلغى وجود النزعات الذاتية التي
تظل مكبوحة ومتربصة لأي فرصة كي تسفر عن وجهها في
فورات خصام أو صراع بارد أحياناً ، وساخن أحياناً أخرى ...
مادام الأطفال في المرحلة الانفعالية الذاتية .

ومما يمنع الصراع السافر — لدى الأطفال ولدى الدول —
ويرغم الجميع على البحث عن أرضية مشتركة للتعايش السلمي
أن تكون القوى متقاربة . فتوازن القوى يساعد على إيجاد هذا
« السلام المسلح » أو ما كان الأقدمون يسمونه « هدنة على دخن » —
أي هدنة لاتقوم على ودخالص ، بل على تربص لأي اختلاف في

توازن القوى يجده أحد الأطراف فرصة سانحة كي يفرض رغبته أو إرادته على الطرف أو الأطراف الأخرى ...

قانون واحد لتعدد القوى في المجال الواحد ، سواء كانت هذه القوى « ذاتيات انفعالية » لدى الأطفال ، أو « ذاتيات انفعالية » لدى الدول ... -



وأول خبرة يتعلم منها الطفل في مجتمع الأقران شيئاً جديداً ، عن طريق رد الفعل الانفعالي ، أنه إذا حاول فرض رغبته على آخر بخطف شيء راقه أو استهواه ، أو بتوجيه ضربة إليه لأي حافز أثار ضيقه ، تلقى رد الفعل الانفعالي فوراً : عدواناً بعدوان ، وضربة أو أكثر بضربته الواحدة ، ولم يجد استعداداً للرحمة أو التساهل ... على النحو الذي كان كثيراً ما يحظى به في البيت .

ومن تكرار خبرات الاحتكاك ورد الفعل ، لا يجد أمامه وسيلة أخرى سوى محاولة المسالمة بكبح رغباته التي تعودت أن تفرض نفسها على ما في بيئته سابقاً ... كي يأمن ردود الفعل المؤلمة ... ويحاول أيضاً استجلاب رضا أفراد البيئة الجديدة بمختلف أنواع التودد ، الذي لا يخلو من احتكاكات سريعة يثبت فيها قدرته على مقاومة العدوان ، وسرعان ما تصنف هذه الاحتكاكات التي تشبه « بالونات الاختبار » التي تطلقها الدول لتحسس رد الفعل ومدى

استعداد الطرف الآخر للمقاومة أو الاستسلام . ويتعلم أن يعامل الآخرين بمثل ما يجب أن يعاملوه به .

وشيئاً فشيئاً تتكون في مجتمع الأقران مجموعات صغيرة أو شلل ، كل منها في الحقيقة « عصابة » أو « كتلة متحالفة » ينسى كل عضو فيها انفعالاته الذاتية الفردية ، ويندمج في « روح الجماعة » التي يجد في أمجادها ونشاطاتها مصدراً لإشباع رغباته وانفعالاته التي كانت حتى الآن فردية .

وبهذا « الاندماج » الاجتماعي تبدأ لدى الطفل مرحلة جديدة ، لا يزال فيها انفعاليا ذاتيا ، معاييرها لا تتعدى السرور والألم ، أو الأقبال والنفور ، أو نشوة النصر والفخر ومضاضة الهزيمة والانكسار .

ويمكننا أن نسمى هذه المرحلة الذاتية الانفعالية الجديدة التي بدأت في التكون ، مرحلة « توسيع الذات » . التي تتصف بما تتصف به كل التحالفات المعروفة على مستوى الدول ، من تجميع القوى المشتركة في الأمزجة أو المصالح أو المخاوف ... مع بقاء كل دولة أو كل ذات فردية قائمة بذاتها فيما بينها وبين نفسها ... أما في الأمور العامة المشتركة فالتحالف كوحدة هي التي تمارس نشاطها .

ويسود هذه التحالفات الطفلية ما يسود تحالفات الدول وتكتلاتها . فالعضو يمكنه إذا أحس أن عضويته غير ملائمة لرغباته

أو مصالحة أن ينفصل ، لينضم إلى مجموعة أخرى . ولكن السمة
في جميع الأحوال هي سمة « الذاتية الموسعة » .

وفي داخل هذه المجموعات أو التحالفات (الشلل) تجد الطاقة
الانفعالية الفردية متنفسا أكبر ، بسبب المشاركة في « روح الجماعة »
و « العمل الجماعي » ، فترى الصفة الغالبة لنشاطات هذه « الذاتية
الموسعة » طاقة هائلة من « الحماسة » ، التي هي في الواقع تجميع كمي.
ضخم للطاقة الانفعالية العنيفة لدى كل فرد من أفرادها . ومن شأن
هذه الحماسة أن تزيد وتعمق مشاعر السرور والغضب والاندفاع
والإصرار ... فيجد الطفل عضو هذه الجماعات الطفلية ما يشبع
انفعاليته بصورة لم يعهدها من قبل حين كان يعيش في بيئة البيت .

ورد فعل هذا الاشباع الانفعالي الجارف أن يزداد تعلق العضو
بالجماعة — أي جماعة يشبع انضمامه إليها انفعالاته — ويحس أنه ولد
بعضويته ولادة جديدة ، ونحطى بحياة جديدة فيقوى اندماجه وانتمائه.
وولاؤه .

وهذا الاندماج أو الانتماء أو الولاء علامة على أنه « تجاوز ذاته ».
الفردية لحساب « الذات الموسعة » الجديدة ، أي الذات الجماعية .

بحيث يجد نفسه ضائعا إذا أبعدته المرض مثلا عنها ، وبحيث ينسى ذاته الفردية في ذاته الموسعة في لحظات او مواقف الحماسة الجارفة .

وفي هذا المجتمع الجديد ، بل هذه « الحياة الجديدة » تنمو لديه في الوقت نفسه — من غير أن يدري — ملكاته المعرفية والادراكية شيئا فشيئا ... عن طريق الخبرات التي يكتسبها من التعلم في المدرسة وفي الملعب ، وفي كل مكان ...

أطوار الذاتية الموسعة

وفي ساحة « مجتمع الأقران » يؤدي توالى الانفعالات بالأشخاص
أى الأقران ، نتيجة الخبرات والتجارب المتوالية من الاتصال
والاحتكاك ، إلى نشأة عواطف تبلور فيها الانفعالات المتكررة
المتشابهة ... وهى إما عواطف نفور أو عواطف ارتباط .

وهذا النمط من العواطف شبيه فى نشأته هنا ، بنشأة العواطف
فى بيئة البيت ... ويتميز بالخروج عن دائرة « الأثرة » أو الأنانية
الضيقة التى كان الطفل فى البداية ينحصر داخلها .

وينبغى هنا والآن أن تنبه إلى أن هذا الاستعداد لتحول
الانفعالات الجزئية المتكررة المتواترة إلى عواطف أكثر منها ثباتا
تتيح إقامة علاقات لها نوع من الاستقرار بالأشخاص الموجودين
فى بيئة الطفل ، إنما هو استعداد متفاوت ، بمعنى أن الأطفال
متفاوتون من حيث توافر هذا الاستعداد لديهم . فمنهم من يظل فى
هذه المرحلة جانحا إلى الأثرة فى تكوينه لهذه العلاقات . فيكون
إحساسه بالذين يتعلق أو يرتبط بهم قائما على أساس « أداتى » ، أى
من حيث هم « أدوات » أو « وسائل » لإشباع أثرته أو رغباته
الخاصة . ومنهم أيضا من يكون أكثر تحرزا من هذه الأثرة ، فلا
يكون إحساسهم بمن يتعلقون بهم إحساسا « أداتيا » ، نحالسا ، بل
يميلون ميلا واضحا إلى تغيير رغباتهم الخاصة بما يوافق هؤلاء المحبوبين

ويدخل عليهم الرضا والسرور . وهؤلاء بالطبع ذوو استعداد أكثره
« انفتاحية » على الآخرين ... أى أنهم أميل للعطاء فى مشاعرهم ،
وليسوا مستأثرين بموضوعات حبهى مائة فى المائة ... بل إن منهم من
« يستمدون » معظم أو كل رضاهم من إرضاء من يحبونهم .

وسىظل هذا التباين بين أذاتية الاستئثار الآخذ ، و « امتدادية »
التفتح المانع . أو بين « الامتصاصية » و « الإشعاعية » ملحوظاً فى
سلوك الناس فى شتى المراحل والأطوار ، حتى نهاية العمر ، تبعاً
للاستعداد النفسى ، أو ما يسمى « الطبع » .

وسىظل هذا التباين ملحوظاً أو كامناً ، أيا كانت مساحة
الدوائر التى يتم بها « توسع الذات » ... أى التى ينضم إليها الطفل ثم
الناشئ ثم البالغ فيما بعد ، فىقال أنه ينتمى إليها بإحساسه .

فهناك مثلاً ، بعد الانتماء الأسرى ، الانتماء « الشلى » ، أو
« العصبية » الصغيرة من رفاق اللعب ، والانتماء إلى مدرسة معينة ،
تدخل فى دائرتها الشلل المتعددة ، ومنها شلة الطفل الأساسية بالإضافة
إلى الشلل الأخرى المناوئة أو المنافسة ...

وفى هذه المرحلة يعرف الطفل معنى « الصراع » الذى يسببه
تعدد الانتماءات ، بما يتطلبه كل انتماء منها من ولاء . فىكون عليه
أن يختار إلى أى الولاءين المتعارضين (أو الولاءات المتعددة)
ينحاز .

إنه لا يعنى وعيا عقليا واضحا هذا التعارض ، ولكنه يحسه ،
ويتصرف بتلقائية إحساسه . ويكون الانتماء الأقوى هو الأضيق
أحيانا ، أو هو الأشد تأثيرا أحيانا أخرى ، على حسب « المزاج »
النفسى أو الطبع .

فدو الطبع الأداتى المستأثر لا يكون ولاؤه الأعمق والأقوى أيا
كانت دائرة انتمائه إلا لذاته وما يرضيه . فحين تتعارض مطالب
أى انتماء له مع مطلبه الذاتى ، يكون انحياز له لنفسه واضحا قاطعا
وبلا خجل . أما ذو الطبع الإشعاعى فيشعر بالتوزع بين نداء ذاته
ونداء الانتماء للمجموعة ، وإذا انحاز لنفسه ضد هذا الانتماء شعر
بالخجل ، وعد نفسه ضعيفا ، وأغضى تحت أبصار أعضاء مجموعته ،
وهذه أول علامات الشعور بالارتباط أو الولاء للآخرين . أى
أول علامات الإحساس بمعنى الواجب ، الذى لا يكون إلا على
حساب الذات والذاتية . وأصحاب هذا الطبع منهم الذين يبدو منهم
فى مثل هذا الموقف الانحياز لجانب « الولاء » ضد ذواتهم ورغباتها .
وهؤلاء هم الذين تنتظر منهم فيما بعد البطولات الأخلاقية . بل
إن بوادرهم هذه وهم صغار بطولات أخلاقية واضحة ، لأنها قدرة
وإقدام على « التضحية » برغباتهم الذاتية الفردية فى سبيل الولاء
العاطفى لشيء خارج ذواتهم . ويتميزون غالبا منذ طفولتهم بالحنان ،
على عكس المركزين فى ذواتهم الذين لا يشعرون غالبا بما يتجاوز
« الرثاء لأنفسهم » .

ومع اتساع دوائر الانتماء ، تنشأ الصراعات بين مطالب هذه
الانتماءات — وليس بالضرورة بين الذات والولاء للمجموعة —
وعندئذ ينشأ في البداية ما يعبر عنه المثل الشعبي .

— أنا وأخى على ابن عمى . وأنا وابن عمى على الغريب ..

فالرابطة الأخوية دائرة داخل دائره الأسرة الكبيرة التي يدخل
فيها ابن العم . وهذا النمط ينطبق على الانحياز عند تعارض الولاء
لدائرتين تدخل إحداهما في نطاق الأخرى . وبحسب منطق « الذاتية
الموسعة » تتغلب الدائرة الأضيق — لأنها أقرب لمركز الذات — على
الدائرة الأوسع ، كما تغلبت الذات على أضيق الدوائر .

وهنا أيضا ينبغي أن نلاحظ مراحل التطور في نفسية الطفل ،
فانه عند حد معين من النمو الإدراكي يرتقى إلى الإحساس بقوة
علاقته بالدوائر الأوسع ، على أساس معرفي يتجاوز مقاييس العواطف
الشخصية أو الذاتية .

فالجانب الإدراكي يكتسب بالتدريج مزيدا من القوة والاستقلال
عن الجانب الانفعالي ، فيصبح الطفل أو الناشئ أقدر على معرفته
الواقع « كما هو » ، وأنه من حيث هو واقع مستقل عن انفعالاته
وعواطفه الشخصية .

كان إحساسه في البداية أن والده مثلا أقوى وأهم رجل في
العالم . ولكنه — مع نمو قدراته الإدراكية للواقع — يعرف بعد ذلك

أن أباه ليس أقوى ولا أهم رجل في العالم . بل لعله أيضا يعرف أنه ضئيل الحجم والوزن والأهمية . ويمكن مع هذا أن يظل ارتباطه وتعلقه بأبيه كما هو ... فلا يبنى معرفته بالأشخاص والأشياء على أساس انفعالي أو عاطفي .

ومن تنمو لديهم هذه القدرة المعرفية « الموضوعية » للواقع ، ويتم استقلالها عن مشاعرهم « الذاتية » مختلفون عن لا يتم لديهم هذا الاستقلال ، فتظل إدراكاتهم للأشياء ملونة أو قائمة على مشاعرهم الذاتية . وهؤلاء الذاتيون العاطفيون تظل لديهم « حارتهم » أعظم شوارع الدنيا ، و « أولاد حنتهم » أعظم « جدعان » العالم ... وما إلى هذا من الأحكام الذاتية التي لا سند لها من الموضوعية النزيهة البريئة من التحيز الأعمى .

وهذا التحيز الأعمى - سواء للمدرسة أو الحارة أو النادي الرياضي أو فريق كرة القدم .. أو الإقليم .. وهلم جرا - هو أساس « العصبية » الجامعة العمياء ، التي تتأجج بسببها الحزازات والصراعات الطفلية ، والصبيان ، بل والدولية أيضا .



وواضح أن الشعور بالولاء إنما هو ارتباط عاطفي . وقد لاحظنا أنه يتفاوت بتفاوت الاستعداد النفسي له .

ومن الطبيعي أن الولاء الذاتي الذي لا يصاحبه إدراك واقعي موضوعي يحفظ التناسب الواقعي بين الأشياء والأشخاص ، من

السهل أن يدفع بصاحبه — نتيجة التعصب الأعمى غير المستنير
بالمعرفة الموضوعية الواقعية — إلى العدوان ، لفرض ما تتوهمه
عاطفته الذاتية بالقوة على الناس ، أى لتحويله إلى واقع بالنسبة
للجميع ، لا بالنسبة لذاته فحسب ! .

أما من تنضج لديهم القدرة الإدراكية الموضوعية للواقع فقد
لا يقل إعزازهم الذاتى لموضوعات حُبهم العاطفى الذاتى ، وتعلقهم
الوجدانى الانفعالى بها ، ولكن هذا الإعزاز لا يتدخل فى أحكامهم
أو اقتناعاتهم المنصبة على الواقع بشكل عام — هذا إذا كانوا من
ذوى الطبائع المفتحة المستعدة لتجاوز ذاتيتهم . أما النوع الآخر ،
وهم الذاتيون المتصلبون ، فيجنحون إلى « المكابرة » ، أى يرفضون
الإذعان لحكم الواقع الموضوعى ، ويصرون على « فرض » مشاعرهم
وانتماءاتهم الذاتية (غير الموضوعية) على الآخرين ، بقصد تغيير
الواقع كى يوافق مشاعرهم وانتماءاتهم الذاتية . وبدلاً من تعديل
معتقداتهم الذاتية ليتطابق الواقع الموضوعى ، يريدون تعديل الواقع
الموضوعى ليتطابق معتقداتهم الذاتية .

وهؤلاء لا يزال سلوكهم بازاء الواقع شبيهاً بما يكون فى مرحلة
السنتين الأولى والثانية من الطفولة ، حين يدرج الصغير بخطواته

الأولى فى المكان ، ويفضب عندما يجد الجدار يعترض طريقه ،
ويحاول ازاحته فلا يتزحزح .. حتى إذا ما تجاوز هذه المرحلة صار
يعدل هو مساره ليدور حول الجدار . أما المكابرون فتظل سلوكيتهم
بازاء الواقع الكبير كسلوكية هذا الطفل الصغير بازاء عالم حجراته
قبل أن ينمو متجاوزا الإصرار على فرض رغباته على الواقع المستقل
عنها .

قه اعد اللعبة

وفى مرحلة تالية لإدراك الواقع موضوعيا ، واستقلال هذا الواقع عن الرغبات الذاتية ، تأتي مرحلة قبول الطفل فى مجموعات اللعب الجماعى ، ولا سيما لعب الكريات الصغيرة (لعب البلى) .

فقبل مرحلة معينة من النمو لا تسمح مدارك الطفل بتفهمه قواعد اللعبة ، فلا يقبلون انضمامه للمجموعة الالعبة (لأنه لم يزل صغيرا) . ومتى وصل إلى هذه القدرة دخل المجموعة ومارس اللعبة ، التى تتميز بأن لها قواعد خاصة .

ومعنى هذا أن الطفل صار قادرا على فهم معنى القاعدة . ولكن الالتزام عند الممارسة بهذه القواعد المعروفة يتفاوت بتفاوت ما أشرنا إليه من الاستعداد للتجرد من الذاتية المستأثرة ، وتجاوزها إلى شىء خارجها هو القواعد المستقلة بوجودها الموضوعى عن رغبات كل فرد من أفراد المجموعة .

فمنهم من يحاول — رغم إدراكه التام للقاعدة — أن يغالط أو يراوغ ، تحقيقا لرغبته أو مصلحته الذاتية وهى الكسب واثقاء الهزيمة أو الخسارة . وبعضهم أميل إلى الإذعان للقاعدة ، أى للخروج من ذاتيته الضيقة . ومعنى هذا الانتماء أو الولاء العاطفى لشىء موضوعى هو القاعدة الموضوعية التى لا تتأثر برغبات الأطراف المشتركة فى اللعبة ، بل عليهم هم أن يتأثروا بها .

وهذا الارتباط أو الولاء العاطفي هو الذى يستطيع وحده أن يحول « المعرفة الموضوعية » للقاعدة إلى « التزام » أو « ولاء » لا يمكن بدونه أن تمضى اللعبة فى مسارها الصحيح

وهذا الولاء واضح جدا أنه متميز ومختلف تماما عن الولاء للمجموعة أو الذات الموسعة ، كفريق كرة القدم ، أو الأسرة ، أو « الشلة » ، أو « الاقليم » ... فالولاء للذات الموسعة ولاء عاطفى محض ، وذاتى محض ... ولذا كثيرا ما يفضى للتعصب الأعمى والتحيز ، الذى هو فى الواقع تحيز للذات ولكن بصورة غير مباشرة. إن معنى تحيزك وإصرارك الانفعالى على أن فريقك أعظم فريق لا لشيء إلا لأنك تنتمى اليه وتحبه ، أنك جعلت من « ذاتك » الفردية مصدرا للسلطات تريد فرض سلطانها التحكمى على العالم بأسره ، فليس هناك أساس واقعى موضوعى لتحيزك للفريق ، أو الحارة التى ولدت بها ، بل الأساس الوحيد هو تحيزك الشخصى أى رغبتك الذاتية . فتعصبك هنا لذاتك الموسعة إنما هو تعصب لذاتك أنت ، وتمجيدك للمجموعة التى تتعصب لها ، إنما هو تمجيد فى الحقيقة لذاتك .

أما الولاء لقواعد اللعبة فولاء لاذاتية فيه ، لأنه لا يقوم على تضخيم أهمية الذات وتمجيدها ، بل يقوم على « إخضاع » و « قهر » و « إجبار » ذاتك على تنفيذ القاعدة مهما كانت النتائج ضد مصلحتك الذاتية .

وهذا هو النموذج الأول للولاء الموضوعي ، لقاعدة أو مبدأ
كلي . أي مبدأ ليس جزئيا خاصا بحادث فردي ، ولا بذات أي
شخص معين ، بل هو ملزم لكل على السواء .

وهذا بعينه هو نمط الولاء الأخلاقي بمعنى الكلمة ، بصرف
النظر عن الاعتبار الذاتية . إنه نمط « ما ينبغي » الموضوعي في
مقابل نمط الرغبات الذاتية .

وهذا النمط يأخذ في الحياة بعد ذلك أشكالا شتى . ولا يزال
موقف الناس منه (وهم يمثلون أطراف مجموعة اللعبة) متفاوتا من
حيث مدى الالتزام الصادق — لدى من لديهم ميل أو استعداد
لتجاوز ذاتيتهم — فقد يوجد من يتظاهرون — خوفا ونفاقا — بأنهم
ملتزمون ، ولكنهم لا ينفكون يحاولون — ما أمكنهم المحاولة — أن
« يغالطوا » لتحقيق رغباتهم الذاتية ، لأن ولاءهم الحقيقي لم يزل لها ،
ولا يردهم عن المغالطة والمراوغة إلا يقظة بقية الأطراف واحتجاجهم
عليهم

●
والملاحظ للأطفال وهم يلعبون بالكريات (البلي) أن مجموعتهم
الصغيرة يسمح حجمها بتركيز انتباه كل منهم على نشاط الآخر ،
وتنبههم إلى أي خروج على القاعدة ، فسرعان ما ترتفع صيحات
الاعتراض والاستنكار عند أول بادرة للمغالطة المقصودة ، أو المخالفة
غير المقصودة .

ونلاحظ كذلك أن أحد اللاعبين إذا أراد مخالفة القاعدة على نحو معين ، واحتج عليه الآخرون (أو الآخر لأن اللعبة قد تكون ثنائية) يسكتهم بقوله :

– على وعليكم !

وقد يقبل الآخرون ذلك . ومعنى هذا أن من أراد تغيير القاعدة ، يعرف تمام المعرفة ويدرك تمام الإدراك أن تعديل القاعدة لا يكون إلا باحلال قاعدة أخرى محلها . فهي إذن قاعدة صالحة للاتباع ما دامت مستوفية للشرط الكلى فى القاعدة أو المبدأ ، وهو شرط « على وعليكم » . أى شرط تساوى جميع الأطراف فى الخضوع لها والالتزام بها .

وهذا هو الإدراك الذى يصاحبه إيمان بأن المبدأ أو القاعدة تمثل « ما ينبغى » ، وأنها فوق جميع الأطراف ، أى من مستوى يفوق مستوى ذواتهم من حيث هم ذوو رغبات ومصالح خاصة فردية ويترتب على هذه الفوقية الشعور بالإكبار أو الاحترام .

ولاشك فى وجود شعور منعكس على الذات نتيجة هذا الالتزام الموضوعى ولو على حساب الذات من حيث رغباتها ومصالحها . وهذا الشعور المنعكس هو « احترام الذات » لأنها كانت « أكبر »

و « أرقى » من مستوى رغباتها ومصالحها ، بارتفاعها إلى مستوى احترام القاعدة التي تمثل ما ينبغي .

ويصاحب هذا الشعور بالرضا عن الذات لهذا « التسامح » ، شعور جماعي من أطراف اللعبة الآخرين بأنه مارس اللعبة ، أى سلك مسلكا محترما يدعو لاحترامه .

وفي مرحلة تالية من العمر يتدرج الطفل من المنافسة الفردية الخالصة في لعبة الكريات (البلي) إلى لعبة مثل كرة القدم ، ليست المنافسة فيها فردية ، بل بين مجموعتين ، ينتمى اللاعب لإحدهما :

وهنا يكون الموقف من قواعد اللعبة على تنوع مختلف عن الموقف في ألعاب المنافسة الفردية . فها هنا يوجد ما يسمى « روح الفريق » أى الولاء العاطفى للفريق الذى يمثل « الذات الموسعة » كما يوجد الالتزام بقواعد اللعبة بازاء الفريق المنافس .

وها هنا أيضا يوجد مجال أكبر لتنوع السلوك الخلقى . فمن هم أميل إلى الذاتية الفردية رغم انتماءاتهم الذاتية الموسعة يحاولون انتهاز كل فرصة لظهور امتيازهم الفردى على سائر أعضاء فريقهم ، بالاستئثار بالألعاب التى تبرز مهاراتهم الفردية وتستدر الإعجاب بأشخاصهم أو التصفيق لهم ، ولو أدى ذلك إلى شىء من تفويت فرص النصر على فريقهم ... فى حالة وجود من يعلمون أنه أقدر

منهم على تسديد الهدف وإصابته ، لو أنه « أنكر ذاته » بتمرير الكرة إليه .

أما من هم أميل إلى الولاء للفريق فيصنعون العكس ، ويبدو نشاطهم في اللعب مدعماً لروح الفريق وملتزم بها .

وبازاء الفريق المنافس ، نجد « الذاتى » من اللاعبين يحاول المراوغة من قواعد أو مبادئ اللعبة بالخاشنة المستورة قدر الامكان لاعضاء الفريق المنافس ، بل ينجح أحيانا إلى الخشونة السافرة . فهو « أداتى » ، فاللعبة عنده أداة للنصر يستبجح فيها أى اسلوب ، بغير احترام حقيقى لقواعد اللعبة .

أما الملتزم غير « الذاتى » أى غير « الوصولى » ، فانه يحترم قواعد اللعبة ، ولو ضد مصلحته ومصلحة فريقه ...

وبهذا يتفاضل اللاعبون خلقيا . وبهذا أيضا يصح ما يقوله الناس من أن الملعب مدرسة لتكوين الأخلاق وممارستها ...

فعقدة القضية هنا ، هى الولاء « الموضوعى » للقاعدة أو المبدأ ، بحيث يكون مكيالا واحدا لا يتأثر بالاعتبارات الذاتية . بل هو واحد بالنسبة للجميع ، على حد سواء ، وبصرف النظر عن الذات المفردة ، والذات الموسعة ...

المكيال الواحد ،
الوظيفة الحلقية .

ها نحن إذن قد وصلنا إلى تحديد « الوظيفة الحلقية » لدى الإنسان . وسوف نلاحظ هنا أنها وظيفة خاصة بالإنسان ، لأنها من صميم تكوينه عندما يصل إلى مرحلة معينة من النمو النفسى والعقلى ...

فالولاء للقاعدة أو المعيار أو المبدأ الموضوعى هو حجر الأساس فى الوظيفة الحلقية ، التى تتلخص فى اعتماد وممارسة السكيل بمكيال . واحد لجميع الأطراف الذين تشملهم هذه القاعدة الموضوعية ، على وجه المساواة المطلقة .

فوعى الفرد لوجود هذه القاعدة الموضوعية فى مستوى أعلى ومستقل عن جميع الاعتبارات الذاتية ، وأنه لا مفر من سريانها على جميع الأفعال التى تنظمها هذه القاعدة ، بما أنها تمثل « ماينبغى » أن يكون . وبالتالى لا مفر من أن يكون أى فعل مطابق لها هو الصواب . وأى فعل يخالف لها هو الخطأ . بصرف النظر عن شخصية الفاعل . بل بالنظر إلى الفعل فى حد ذاته .

وهذه العلاقة التنظيمية بين مستوى ما ينبغى الموضوعى الكلى ، وبين مستوى الفعل الواقعى الجزئى ، هى قوام الوظيفة الحلقية . المعيارية عند الإنسان .

وهى وظيفة نابعة من هذا الازدواج بين مستوى الفعل الجزئى

وبين مستوى القاعدة الموضوعى الكلى . وخضوع ما يجرى فى
المستوى الجزئى من الأفعال لحكم القاعدة الموضوعية الكلية .

ولما كان الحيوان خالياً من هذا الازدواج فى المستوى ، فليس
له إلا مستوى واحد هو المستوى الذاتى الجزئى ، ولا إدراك لديه
لما هو موضوعى كلى .. لأن الموضوعى الكلى معنى مجرد ، لا يمكن
أن يدركه الحيوان . والإنسان التام الإدراك العقلى هو وحده القادر
على إدراك المعانى الكلية المجردة .

ونقول التام الإدراك العقلى ، لأن الناشئ لا يدرك هذه القواعد
المعنوية الكلية إلا بعد أن يصل إلى مرحلة معينة من النمو فى قدراته
العقلية . أما المتخلفون عن هذه المرحلة من النمو ، فشأنهم شأن
الحيوان الأعجم فى العجز عن إدراك معنى القاعدة الكلية . ولذا
فلا مسئولية على الحيوان ولا على الأبله . لأن المسئولية الأخلاقية
تفرع عن القدرة على إدراك القاعدة أو المبدأ .



فالمكيال الموضوعى الكلى ، الواحد بالضرورة ، هو الأساس
الذى تعمل « الوظيفة الخلقية » بمقتضاه .. ومعنى أن هذا المكيال
الموضوعى الكلى واحد بالضرورة بالنسبة لجميع الأطراف ، أنه
يقتضى « المساواة » المطلقة فى الخضوع لأحكامه .

والحقيقة أن الطفل — متى وجد وسط أقران — سواء فى الأسرة

أو في أى مجتمع خارجها يغدو شديد الحساسية لمسألة المساواة ،
لاعن وعى في البداية طبعا لمعنى المعيار الواحد ، بل عن فرط اهتمام
ذاتى بذاته وأهميتها ورفض هوانها .

أجل لآمانع لديه أن يكون محل تحيز وتميز على الآخرين . وهذا
دليل على ذاتيته التامة . ولكن متى وجد تحيزا لطفل سواء تألم
وغضب أو حزن أو احتج ، على حسب الأحوال ، وعلى حسب
استعداده النفسى ، من ميل للانطوائية أو الانفتاح .

وعندما يشب عن الطوق يغلب عليه الاحتجاج على التحيز الذى
يضعه فى الموضع الخاسر أو المغبون . ومن هنا تنشأ حركات
الاحتجاج على الظلم . وكثيراً ما يصبح المغبونون فى المعاملة إن
استطاعوا التصريح بألفاظ من هذا المعنى . ولعل من أشيعها استعمالاً
فى السنوات الأخيرة التعبير الدارج :

— كوسة ! كوسة !

أى أن المستفيد بالكوسة يرحب بها ، والمضار بالكوسة هو
الذى يعيبها : فالدافع هنا لهذا الموقف ذاتى . إما ذاتية فردية ، أو
ذاتية موسعة كما يحدث بالنسبة للفرق الرياضية ، بين أنصارها
ونجسومها ، حينما يبدو من الحكم ما يمكن تفسيره بالتحيز أو
التحامل .

ولذا نجد أن هناك من يقولون أن شعار « المساواة » إنما هو

شعار طلب الأمان الذى يريد أن يتحصن به « الضعفاء » ضد جور أو تجاوزات الأقوياء للمعيار الواحد ، عندما يصل هؤلاء الناس فى نموهم إلى إدراك معنى المعيار الموضوعى الكلى . ويتمسكون باحترامه والولاء له .

ولكن الملاحظ أن « الشعور » بأهمية المساواة لحفظ الذات تبدأ منذ الطفولة المبكرة . ويستمر هذا الشعور طبعاً مع الدخول فى مجتمعات أوسع ، وعندئذ - فى الوقت المناسب - يكون قد تم النمو الإدراكى الذى يسمح بتعقل معنى القاعدة ، وأهمية احترامها وهى أهمية يشعر بها الضعفاء أكثر مما يشعر بها الأقوياء ، ولكن ذوى الاستعداد لتجاوز ذواتهم ، إلى درجة « الخروج على ذواتهم » الفردية أو الموسعة هم المؤمنون الحقيقيون بالموضوعية ، حتى عندما يكون من السهل عليهم مخالفتها لمصلحتهم .



ولكن من هم « الأطراف » الذين تسرى عليهم القاعدة الموضوعية الكلية ، أى قاعدة التعامل العادل ، بصورة واحدة هى صورة الكيل للجميع بمكيال واحد لا تفاوت فيه بحسب الأشخاص ؟

هذا ما تحدده الأنواع المختلفة للقواعد التى تستخدمها « الوظيفة الخلقية » التى شرحناها آنفاً .

فقواعد اللعبة تؤخذ من تقاليدنا أى عرفها السائد . وكذلك

قواعد التعامل في المجتمع ، التي تحدد الحقوق التي تراها القاعدة
طبيعية لجميع أفرادها . وكثيراً ما يتلقاها الناس « جاهزة » من العرف
السائد في مجتمعهم .

ومعروف أن العرف الاجتماعي يختلف باختلاف المجتمعات في
الزمان الواحد ، بل إن العرف في المجتمع الواحد قابل للتغير بتغير
الزمن . ولا يخلو كل عرف من فرض « المكيال الواحد » أي العدل
الموضوعي لأعضاء هذا المجتمع المعين ، ولكنه قد لا يفرضه بالنسبة
للغرباء عنه . بل قد يوجب العمل بنقيضه بازاءهم .

فمجتمع اللصوص في العصابة الواحدة يفرض الأمانة على
جميع أفرادها . وكثيراً ما يكون عقاب السلوك الأناني المخل بالولاء
للعصابة هو الموت . ولكن هذه القاعدة محدودة بعضوية العصابة
وتوجب نقيضها بالنسبة لكل من ليسوا من أعضائها . فهؤلاء
« يجب » أن تسرقهم كي تكون مخلصاً لمبدأ العصابة .

وهذا مجرد مثال . ومنه يتضح أن كلية القاعدة الأخلاقية
العرفية (أي المأخوذة من العرف الاجتماعي) كلية محدودة النطاق .
وأن المكيال ليس واحداً إلا في داخل هذا النطاق المحدود ...

والعرف — لدى من وصلوا إلى أقصى نضج عقلي وولاء
للموضوعية العقلية — قد لا يصلح مصدراً للقواعد الأخلاقية ،
بسبب هذا الضيق في نطاقه ، مما يجعله « متحيزاً » لمجموعة معينة من
الناس ، مع أن العقل الموضوعي يرفض هذه الحدود التعسفية ،

ويرى ضرورة شمول كلية المكيال . الواحد للبشر كافة لتكون كلية مطلقة .

ولكن ليس كل الناس فى هذا المستوى ...

وهناك أيضا القواعد الكلية المطلقة التى ليس مصدرها بشريا :
لا من العرف ولا من العقل ... بل من مصدر أعلى من البشر كافة ،
هو المصدر الالهى ... أى قواعد الأخلاق الدينية . وإيمان المؤمنين
بها يرتفع بها فوق العقل ، وفوق المناقشة .

ولكن المهم فى جميع الأحوال هو الالتزام بالقاعدة التى يعتنقها
المرء . وأن يكون ولاؤه أو إيمانه بها دافعه إلى تغليبها على ذاتيته .

ويلاحظ أنه فى حالة الأخذ بمكيال أو قاعدة موضوعية كلية
ليس مصدرها العقل المطلق . . سواء أكان مصدرها العرف أو
الدين ، أن العقل فى هذه الحالة لا تكون مهمته القيادة ، بل مهمته
التنفيذ ليس غير

والموضوعية — موضوعية المكيال الواحد — فى جميع
الأحوال ، هى محل الولاء ، وفى هذا الولاء يقوم « الخلق القويم » ،
الذى يجرى العدل ، فينصف الآخرين من نفسه — طبقا للقاعدة
الموضوعية — وينتصف لنفسه أيضا طبقا لها ...

فبغير الموضوعية لا أساس للأخلاق بالمعنى الإنسانى وبغير
الولاء لها ، لا قيام للأخلاق ...

الموضوعة ليست بلا ثمن •

يجب علينا ونحن نتحدث عن الموضوعية أن نكون موضوعيين !
ومن الموضوعية أن نقول أنها ليست شيئاً هيئنا على جميع البشر ،
وعلى حد سواء .

فالمشاهد الملاحظ أن الطفل من البشر يولد شبيهاً في تكوينه
وسلوكه بالحيوان . مركزاً في ذاته ، وكل نشاطه وسلوكه متصلان
بحاجاته الحيوية والعضوية . ويظل سلوكه في المرحلة الأولى بازاء
جميع الأشياء سلوكاً ذاتياً محضاً ، وحسباً محضاً في إدراكاته ومعرفته
بما يحيط به .

ويتطور الطفل في إدراكه وفي سلوكه ، وتبدو له ملكات
إدراكية وأنواع من السلوك تخرج به عن المستوى الذاتى الشبيه
بمستوى الحيوان شيئاً فشيئاً . هذا صحيح . ولكن دوافعه الذاتيه التى
مصدرها غرائزه وحاجاته الحيوية الأساسية تظل موجودة وجودة
واضحة أصيلاً ، إلى جانب المستوى الذى تطور إليه من حيث
المعرفة والسلوك .

بل يتفاوت الأطفال في سرعة ومدى أطوارهم الجديدة ، ولكن
المستوى الأول لوجودهم الحيوى - أى الحيوانى - الذاتى المحض
يظل موجوداً . وشبيه هذا بالنبته التى تبدأ بذرة دفيئة تحت سطح
التربة . وتتطور النبتة في سبيلها إلى أن تغدو شجرة باسقة أو غير

ياسقة ، وذات ثمر مر أو ثمر شهى ، وذات زهر مونتق أو ذات أشواك ، سيان . ففي جميع الأحوال ، وفي شتى مراحل نموها وتطورها ، يظل لها جذر غائر في التربة ، هو أصلها الذي يجب ألا ننساه مهما ارتفعت أبصارنا لتطاول ارتفاع الشجرة في عنان السماء . ومهما أعجبنا بهاء زهرها وراقنا ثمرها أو روعتنا أشواكها ينبغي ألا ننسى أصلها الذي تقوم عليه ، ذلك الأصل الضارب في أعماق الأرض .

هذا الجذر الموجود دائما ، أيا كان تطور الطفل ثم الناشئ ثم البالغ ، وأيا كان ارتقاؤه ، هو التكوين الحيوى الذاتى بمطالبه ودوافعه ونوازعه القوية ، الناشطة باستمرار ، فى شتى مراحل التطور الإنسانى .

ولئن كانت الموضوعية بمقدار تجاوز الإنسان لذاته وخروجه منها ، بل وخروجه عليها . فلا يمكن أن يكون هذا الخروج أيسر من الخروج من تأثير الجاذبية الأرضية ، ومحاولة التحرر منها . فهي موجودة الأثر فى جميع هذه المحاولات ، ولا بد من مقاومتها والنضال ضدها .

ولكن ليس معنى مقاومتها أننا نسعى إلى الغائها واعدامها ، لأن معنى ذلك انتحار الانسان وانتهاء وجوده بالكلية ، مع أن المقصود هو الارتقاء بوجوده لا محوه . ولا بد كى يرتقى من أن يظل موجودا

ولكن على نحو مختلف هو النحو الموضوعي الذي نعرف أنه أفضل وأرقى . وهو لا يمكن أن يظل موجودا إلا اذا بقيت جذور شجرة وجوده أى إلا اذا بقي له مستواه الذاتى ولكن فى نطاق لا يتجاوز الحد الضرورى بحال من الاحوال .

فلو تركنا للمستوى الحيوانى الذاتى حبله على الغارب ولم نضع له حدودا ولم نكبحه كى يظل داخل هذه الحدود ، لاستولى على زمام السلوك كله وجعله ذاتيا ، أى حيوانيا مائة فى المائة . فى حين ان الموضوعية تقتضى الايمان والالتزام بالقاعدة الكلية التى تضاد بمكيالها الواحد للجميع على السواء جموح الذاتية المستأثرة .

فكى تكون موضوعيا تلتزم بالامتناع عن أخذ ما هو أكثر من حقلك ، المساوى تماما لحقوق كل شخص آخر من بنى البشر ، فتتصرف غيرك بعدم الاستيلاء على ما هو من حقه ، وتنصف نفسك بعدم ترك غيرك يستولى على حقلك . لأن الموضوعية معناها العدل . أما الذاتية فمطلبها الجور ، أى الاستيلاء والأثرة ، ما كان ذلك فى إمكانها .

والذاتية كما قلنا موجودة فى جميع الأحوال بأثرها واندفاعها مهما آمنت بالموضوعية . فالموضوعية لا تتم إلا بذلك « الانضباط الداخلى » الذى يجعل من التزامك أو إيمانك بها رقيا يقظا على تصرفاتك ، حتى لاتنقاد لذاتيتك الطبيعية الأصلية ، بل تقاوم

اندفاعها وأثرتها ، وتجاهدها جهادا لا يمكن أن يفتر أو تغفل عنه لحظة واحدة . لأن نشاط فطرتك الأصلية الذاتية لا يمكن أن ينعدم تماما إلا اذا انعدم وجودك أصلا .

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي ..

ولذا يظل الموضوعى المؤمن بموضوعيته حارسا عليها ، ساهرا لحمايتها ، مرابطا لمجاهدة ذاته وأثرتها ، لا يغره سكون هذه الذاتية الظاهري ، لأنها كالأحلام التي تربص بك غفوة كي تظهر على المسرح وتبدأ نشاطها المصادر ...

ومعنى هذا أن هناك حدا معيننا تتركه لنشاطك الذاتى وهو النطاق الذى لا جور فيه على حق غيرك . فلا بد لك من إشباع احتياجاتك الحيوية ، ولكن بالأسلوب أو « الطريقة » المشروعة ، أى التى لاتضير أحدا أو تجور على الحقوق العادلة لغيرك من الناس على أساس المكيال الواحد ، أو « القسطاس المستقيم » ...

ولأن الحاجات الذاتيه الحيويه ، فى أصلها الحيوانى غير المكبوح بالعدل الموضوعى ، عدوانيه جائرة مستأثرة لاتقيم وزنا لغير ذاتها ، قيل أن النفس — أى النفس الحيوانية — أماره بالسوء . أى بالعدوان والجور . ولذا كانت الموضوعية هى مجاهدة النفس الجهاد الأكبر ، أى الأعنف والأشد إرهاقا . .

وهذا هو ثمن الموضوعية .

ولذا يغرر بنا من يطالبنا بالموضوعية وهو يوهمنا أنها بلا ثمن «
فان ثمنها فادح ، هو مجاهدة النفس هذه المجاهدة المستمرة ، حتى
نهاية العمر ...



وجدير بنا هنا أن نتنبه إلى أن طباع الناس ، أى « توليفة »
نفوسهم ليست واحدة . فهناك من فى طبيعهم حدة ، ومن فى طبيعهم
دمائة ، بل من فى طبيعهم ضراوة وشراسة ، ومن فى طبيعهم سلاسة .
والكشف العلمىة — ولا سيما فى مجال الغدد الصماء — أثبت أن
إفراز الهرمونات فى الدم له تأثير كبير على هذه الناحية . فزيادة
بعض الهرمونات أو نقصها هو الفارق بين سلوك الصقور وسلوك
الحمام . وبين الميل للعدوان والافتراس ، والميل للموادة وخفض
الجناح . وبين الخيلاء والانطواء ... وهلم جرا .

وكثيرون من المطبوعين على الإجرام ، هم فى الواقع العلمى.
« مجنى عليهم » لأنهم فريسة اختلال فى إفراز هرمونات معينة ،
لذلك يعالجونهم فى مؤسسات معينة بالغرب بالجراحة ، أو بالعقاقير ،
فتزول منهم ضراوتهم التى كانت مستولية عليهم ولا يملكون لها
دفعاً . . وبذلك انفتح الباب لتعديل مصادر السلوك الذاتى ...

ومهما يكن من شىء ، فهذا يطلعنا على أن جهاد النفس ، التزاماً
بالموضوعية فى السلوك — التى هى أساس الأخلاق بمعنى الكلمة —

ليس أمرا متساويا في صعوبة أو سهولته ، بسبب تباين التكوين الحيوى للبنية البشرية ... وليس من يركب نمرا هائجا أو حصانا وحشيا جامحا ، كمن يركب أتنا ذلولا

نقول هذا قياما بالموضوعية ... وإقرارا بأن الفضيلة في هذه الحالة مرتبطة بمقدار الجهد المبذول ، وصدق الجهاد ، بصرف النظر عن الهزيمة أو النصر ...

ولعل البحوث العلمية المتقدمة ، متى عممت ، تنقل الكثيرين من مصاعب تكوينهم الذاتى ، وتفتح الباب لعصر جديد في الأخلاق البشرية ، تغدو فيه « الموضوعية » ميسرة للكافة ، أى صفة « ديمقراطية » لا تحتاج - كما هى حتى الآن - إلى فروسية تصل فى بعض الطبائع إلى حد الاستماتة أو الاستشهاد ...



ما فوق الموضوعية

إذا كان المستوى الذاتى فى السلوك ، هو مستوى مادون، أى « ما تحت الأخلاق ». وكان المستوى الموضوعى هو «مستوى الأخلاق» الذى ينفرد به الإنسان دون سائر الحيوان ، لقيامه على نشاط « الوظيفة الخلقية » المستمدة من صميم تكوينه المزدوج المستوى . فهل هناك مستوى ثالث ، هو مستوى « ما فوق الموضوعية » أو « ما فوق الأخلاق » ؟ .

إن الذاتية هى مستوى « الأثرة » . أى الأنانية الآخذة غير المانحة .

والموضوعية هى مستوى « العدل » أى تتجاوز الذاتية والخروج على حكمها كى يحل « المكيال الكلى الواحد » محل « الأثرة » بحيث تحرص على ألا تحتفظ بما هو أكثر من حقتك المساوى لحق سواك .

ولكن هذا الذى هو من حقتك دون سواك بمقتضى العدل أى الموضوعية ، إذا ما ملت إلى منحه أو النزول عنه طوعا لأحد أو جماعة أفراد سواك ، فهذا هو « الإيثار » ...

وإذا كانت السعادة بالأخذ « أثرة » . وكانت السعادة بالتزام العدل وكبح الذات عن الجور « موضوعية » . فإن السعادة بالمنح والبذل والعطاء « كرم » لا شك فيه . فاحتفاظك بحقتك ورد نفسك ونزولك عما ليس من حقتك ليس كرما ، وإن كان من فضيلة العدل

بلا مرء .. أما نزولك عما هو من حقلك قطعاً فهذا هو التكرم
وسخاء النفس .

وهذا مستوى من السلوك يعلو فوق مستوى الموضوعية ، الذى
هو مستوى « الخلق القويم » .

إنه مستوى « الخلق الكريم » .

وبه وحده تقوم « مكارم الأخلاق » التى هى النقيض الأقصى -
من حيث هو « إيثار » محض - للمستوى الذاتى أى الحيوانى ، من
حيث هو « أثر » محض . وفيما بين النقيضين يقوم مستوى الأخلاق
الموضوعية ، التى تقاوم الأثرة وتكبحها ، ولكنها لا تذهب إلى حد
« الإيثار » ، أى « التضحية » ... إعزازاً للآخرين ورحمة بهم
أو محبة لهم .

ولئن كانت الأثرة « دون الأخلاق » الإنسانية ، وكانت
الموضوعية صلب الأخلاق الإنسانية وصرحها الأساسى ، فإن
الإيثار هو تاج الأخلاق الإنسانية ، الذى لا يقوم إلا فوق ذلك
الصرح الأساسى .

وهذا لا يكون سلوكاً طبيعياً للمرء إلا إذا بلغ درجة من النمو
النفسى تتجاوز الحرص على الذات ، وتتجرد من التمسك بالتناظر ،
والتساوى مع الآخرين ، وتتخلى عن ربط قيمة الفرد بما يتعفف

عنه من الجور أو الأثرة ، بل بما يمنحه ويعطيه طواعية ، أى بغير رهبة ، أو توسلا لمنفعة خاصة .

فغنى عن البيان أن البذل تحت ضغط الرهبة ، أو اتقاء لضرر ، أو استدراجا وتصيدا لمنفعة ، إنما هو فى حقيقته سلوك ذاتى نفعى لا يرقى إلى مرتبة الأخلاق بمعناها العادى القويم .

فالعطاء أو الكرم لا يكون إلا عن سعادة خالصة بهذا البذل ، لأن هذا البذل يحقق معنى وجود المانع ، ويقوم دليلا قاطعا على أنه تطور من مرحلة « الأثرة » الممتصة ، إلى مرحلة « الإيثار » الإشعاعية . فتغيرت سمجته من التكالب على الامتصاص والاستحواز ، إلى الإشعاع ، مثلما يشع الضوء من منبعه الطبيعى ، كالشمس مثلا ... والمرء حيث يضع نفسه باختياره ...

وهكذا يكون الإنسان قد تحول من النقيض إلى النقيض ورحم الله ابن جريج :

وعسير بلسوغ هاتيك جدا
تلك عليا مراتب الأنبياء ...

فهى مرتبة من النمو النفسى لا تدانيها مرتبة . ولكن ندرتها وصعوبتها لا تقلل من قدرها ... لأنها كالمثل الأعلى : قبله ينبغى أن تتجه إليها الضمائر ، وتهفو إليها البصائر ، وتتغياها المصائر ..
... وسلام على الصادقين ...

أهم مراجع هذا الباب

من شاء التوسع في مضمون هذا الباب ، ففي وسعه الرجوع
إلى مذهبي الفلسفي الذي أطلقت عليه « الفلسفة التعبيرية » ، على
ما وضحناه في كتابنا :

« نحو مفهوم إنساني للإنسان » .. نشر مكتبة غريب بالفجالة ...

- ٢ -

وجاءت المسيحية ...

تلك تأتي أولا ...

«لاتظنوا أنى جئت لأبطل الناموس والأنبياء . ما جئت لأبطل بل لأكمل » — (متى ٥ : ١٧)
هكذا يقول السيد المسيح .

فالناموس بمبادئه السلوكية يأتى أولاً . وهو الأساس الذى يرتفع فوقه بناء المسيحية بعد ذلك ، لا قبله .

فلئن كانت الوصية الأولى مبدأ اعتقادياً إيمانياً تعبدياً ، لأنها تتعلق بوحداية الله ، لأنه خالق كل شئ ومصدر وجوده ، وكانت الوصية الثانية تأمر باكرام الأبوين لأنها أصل الوجود الأرضى . فان سائر الوصايا العشر ، التى هى أساس الناموس الذى جاء به موسى عن الله فى سيناء ، مبادئ سلوكية ينبغى أن يلتزمها المرء المؤمن بما جاء من ربه كى يكون سلوكه أخلاقياً ، مطابقاً لمعيار الصواب .

هذه الوصايا ، أو المبادئ الموضوعية الكلية ، التى حددها الناموس ، وصايا سلبيه ، أى ترسم الحدود التى تعد سياجا للسلوك الخلقى القويم . فكل من خرج على هذا السياج وقع فى الخطيئة . وهذا السياج ذو خمسة أركان :

١ — لا تقتل !

٢ — لا تزنى !

٣ - لا تسرق !

٤ - لا تشهد على قريبك شهادة زور !

٥ - لا تشته بيت قريبك ، لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئاً مما لقريبك ا .



هذه إذن حدود الحرام ، وكل ما ليس حراماً فهو حلال .

ونظرة إلى هذه النواهي السلبية تدلنا على أنها معالم على الطريق إلى « تجاوز الذاتية » . أى أنها نواه موجهة ضد الذاتية ، ولصيانة موضوعية السلوك .

والوصية الأولى فى الناموس ، هى العظمى ، وهى تلك التى عنها السيد المسيح عندما سأله أحدهم (متى ٢٢ : ٣٦)

— يا معلم : ما هى الوصية العظمى فى الناموس ؟

فقال له :

— « أحب الرب إلهك بجميع قلبك وجميع نفسك وجميع ذهنك »

تلك هى الوصية الكبرى والأولى .. والثانية مثلها : « أحب قريبك حبك لنفسك » . بهاتين الوصيتين يرتبط كلام الشريعة كلها والأنبياء .

فالإيمان بالله والتعلق به بكل طاقة القلب والنفس والذهن ،

هو الذى يجعل كل تفكير وكل رغبة وكل فعل متعلقا بما يرضيه سبحانه .

وهذا الإيمان القاهر ضرورى جدا لمقاومة كل نوازع الذاتية الطبيعية التى تدفع إلى المحرمات التى ذكرنا ها فى تلك الأركان الخمسة . من اعتداء على الأنفس بالقتل ، وعلى الأعراض بالزنا ، وعلى الملكية الخاصة بالسرقه . وعلى الحقيقة الواقعة بشهادة الزور . وهذه الدوافع الذاتية يؤججها للعدوان شعور أنانى هو الحسد واشتهاء ما للغير من طيبات .

فبادئ الناموس إذن إنما هى مرشد إلى الموضوعية ، يستلهم الإيمان بالله ويستمد من هذا الإيمان ما يعينه على مقاومة الذاتية وتجاوز نطاقها ... وبذلك يقوم أساس « العدل » .

ولذا كان طبيعيا أن تكون الوصية التالية للإيمان بالله والتعلق بمحبته ، هى « محبة القريب » ... كى تكون هذه المحبة درعا تتحصن به النفس البشرية ضد نوازع الذاتية الأنانية التى تتلظى بالحسد وتدفع بالتالى إلى العدوان .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نلاحظ السمة التربوية فى استخدام لفظ « القريب » . وأن نلاحظ أيضاً دلائل التطور الذى يدخل على مفهومات الألفاظ مع ارتقاء البشر فى الحضارة والفهم ، بحيث تتجه مدلولاتها من الضيق إلى السعة ، ومن الحقيقة المادية إلى الحقيقة المعنوية .

أما السمة التربوية التي نلاحظها ، فهي استخدام هذا اللفظ « قريبك » بما يوحي بالتذكرة والتبكيث لأى نزوع إلى الشقاق .
ففى هذا الاستخدام حض واضح على توسيع معنى الذات :

— أحب قريبك حبك لنفسك ؟

فحين تخلط قريبك بنفسك بحيث يصبح إحساسك به عين
إحساسك بنفسك ، لا يمكن أن تنظر إليه نظرك إلى « أداة » أو
« وسيلة » أو « فريسة » لإشباع حاجاتك الذاتية . فهذه النظرة
« الأدائية » أو « الانتفاعية » هى النظرة الطبيعية لدى الحيوان
الأعجم ، ولدى الوليد من بنى الإنسان : يرى فى كل موجودات
البيئة المحيطة به مصادر لإشباع نوازعه واحتياجاته الطبيعية ، سواء
أكانت هذه الموجودات جمادا أو نباتا أو حيوانا أو بشرا . فعلاقته
بكل من عداه وما عداه علاقة « استهلاكية » .

أما متى اتسعت دائرة ذاته ، فان من يدخلون داخل نطاق
هذه الدائرة الموسعة لا يكونون بعد ذلك مادة لأغراضه الاستهلاكية
أو الانتفاعية ، بل يكون ما هو موجود خارج هذه الدائرة الموسعة
هو المادة التي يستخدمها أو يسعى لاستهلاكها لمصلحة المجموعة التي
صارت « نفسه الجديدة » أو « ذاته الموسعة » .

وتوسيع الذاتية أول مرحلة فى الاتجاه إلى « الكلية » ... لأن
الشخص عندئذ يعامل أفراد هذه الدائرة معاملته لنفسه ، أى يستخدم

— بداهة — مكيالا واحدا لهم وله . والكيل بمكيال واحد — ولو على نطاق محدود — هو علامة الخروج من بؤرة الذات الفردية ، والاتجاه إلى تجاوز الذات .

والملاط (أى المونة أو الأسمنت) الذى يربط الوحدات الفردية داخل هذه الدائرة الموسعة للذات هو ذلك الشعور المناقض تماما للأنانية . إنه « الحب » أو « المحبة » .

وكأنى بهذه المبادئ التى يتضمنها « الناموس » تقوم بدور المربي الذى يعلم الطفل كيف يمشى بدلا من أن يحبو... ويتدرج به فى التدريب والتعويد ، إلى أن يستقيم له السير بغير معين ، وكأنه بحكم المران طبيعة ثانية له ... وعندئذ يتكفل باكتشاف مساراته بنفسه على هدى ما تعلمه فى تلك الدروس الأولى ، وبفضلها .

فالبشر بعد — عند مجئ الناموس — كانوا غلاظ الأكباد ، أى يعيشون تحت نير الأنانية وغرائزها الأولية ، التى تقربهم فى السلوك من الحيوانات العجاء . فكان لابد من الاستعانة بوشيجة اللحم والدم أو صلة الرحم ، أى « القرابة » القبلية والعشيرية ، كى يتعلموا فيها توسيع ذاتيتهم ، ويتدربوا فيها على « محبة القريب محبتهم لأنفسهم » .

ومع ارتقاء الحضارة ونمو الفهم ، والتدرب على « توسيع الذاتية » فى مدرسة صلة اللحم والدم ، أمكن أن يتطور المعنى اللغوى للفظ « القريب » ، ليزداد سعة وشفافية طورا بعد طور .. وتتسع معه دائرة الذاتية ... أى نطاق موضوعية « المكيال الواحد » الذى

هو أساس العدل في كل العلاقات البشرية ... فيتجاوز معنى القريب الأخ و ابن العم وابن الخال ، ليشمل أبناء « السبط » أو « القبيلة » كلها ... ثم أبناء الأمة بأسرها بعد ذلك . لينتهي الأمر بعد أجيال وأطوار إلى معنى الأخوة في الإيمان الديني الواحد ، ثم أخيراً — بمجيئ المسيح — إلى معنى الأخوة في الله ، الشاملة لجميع خلقه .



ومهما يكن من شيء . فها نحن قد رأينا أن الأساس في الأخلاق المسيحية ، ذلك الأساس الذي سيرتفع فوقه بناؤها المتميز ، إنما هو الناموس . ورأينا أن الناموس إنما هو « المبادئ أو المعايير الموضوعية الكلية » التي إن خرقها سلوك المرء صار ذاتياً ، أي مجافياً للأخلاق ... ورأينا أن هذه المبادئ الكلية هي المعالم التي توجه السالك إلى تجاوز ذاتيته في كل أفعاله .

فتجاوز الذات هو حجر الأساس في موضوعية الاتجاه وأخلاقية السلوك البشري .

والموضوعية هي عتبة الأخلاق المتمثلة في « العدل » وفي « المكيال الواحد » ... أو هي مفتاح باب يفضي إلى ما يجاوزه ، ولكن لا يغناء عن المفتاح لمن أراد دخول القصر المنيف .

إنها « الحد الأدنى » ... الذي لا يكفي وحده لقيام مكارم الأخلاق ... التي نجد أنفسنا الآن على أبوابها ..

أليس هو القائل : إنما أثبت لأكمل
وهذا لا يكون إلا لما هو دون الكمال المنشود .

ولماذا لا تكفى ؟ ..

وما وجه النقص فى شريعة الناموس ، التى ترسم الحد الفاصل بين الصواب والخطأ ، فكل ما يتجنب الخطأ فهو صواب ؟

وهل فوق الصواب شىء ؟

أجل ! فوقه كل شىء !

فالصواب الذى حدد تخومه الناموس إنما هو صواب انعدام الخطأ . إنه أشبه بعلامة الصفر المثلوى فى مقياس درجات الحرارة ، التى دونها تكون الحرارة سلبية . وعندها لا توجد حرارة سلبية ، ولا إيجابية أيضاً ؟

إنها النقطة التى يبدأ منها الوجود الإيجابى للحرارة .

وكذلك خط انعدام الخطأ ، عنده يبدأ الاتجاه إلى مراتب الصواب . ولكن هذا الخطأ فى حد ذاته ليس شيئاً إيجابياً بمقاييس الصواب .

وقد يكون من المستحب ها هنا أن نضرب مثلاً من عالم الإنسان لا من عالم الفيزياء . ولنفرض إذن أن شخصاً ما جاء يحمل « صحيفة أحوال جنائية » تشهد بأنه « خال من السوابق » ، أى لم تصدر ضده أحكام جنائية . فهل تكفى هذه الشهادة الرسمية للدلالة على أنه شخص فاضل ذو مروءة ونخوة وصدق وما إلى ذلك ؟ أتكفى هذه

«الشهادة مؤهلاً أخلاقياً كى تقبل مصاهرتة . إن تقدم بموجبها يطلب يد كريمتك ؟

الجواب البديهي — عند كل عاقل — أنها لا تكفى لتزكية خلقه . بل هى دليل على أن صحيفته « بيضاء بغير سوء » ، فليس فى « ملفه » ما يعيبه . ولكن لا دلالة لها على وجود ما يشرفه .

وهذا هو الفرق بين العلامات السلبية والعلامات الإيجابية . أو هو الفرق بين الأخلاق السلبية والأخلاق الإيجابية .

وهنا أيضاً نلاحظ ما تقتضيه الطبيعة من التدرج فى مقتضيات التربية وفقاً للتدرج فى مراحل النمو . فكما تبدأ بتعويد الطفل على الوقوف مستنداً إلى شىء ثابت ، ثم مستقلاً بنفسه فى وقفته غير مستند إلا إلى قدرته الخاصة على التماسك فى هذا الوضع الرأسى ، بعد أن كان وضعه أفقياً وهو يحبو على أربع . فيكون الوقوف مستقلاً بداية — مجرد بداية — لا تكفى وحدها ، بل يجب التدرج بعد هذا فى تعويده على التحرك على قدميه ، معتمداً أول الأمر على شىء ، ثم مستقلاً بحركته ، إلى أن يتقن المشى ، ثم يتعلم الجرى ، وتصبح الحركة المستقلة على قدميه طبيعة ثانية له ، أشبه بالغريزة التى لا تخطئ .

نقول على غرار هذا التدرج ، يكون ناموس المبادئ السلبية أو النواهي بمثابة مرحلة السير معتمداً على سياج يسد منافذ السقوط...

حتى إذا أتقن المشى مستقلاً لم تعد هناك حاجة إلى السياج ، لا لأن الوقوع الذى كان السياج يحميه منه أو يمنعه صار مطلوباً أو مسموحاً به ، بل لأن الطفل ارتقى بقدراته ، وصار السياج فى داخله ، فلا حاجة به إلى سياج خارجى .. وهذا هو « الانضباط الداخلى » .

فالاستغناء هنا عن حصر الجهد كله فى توقى السقوط ليس استباحة للسقوط ، أو عجزاً عن التقيد بما يمثله السياج من موانع ، بل فرط قدرة هى فى حد ذاتها خير ضمان وأمان ضد السقوط ...

ولابد أن يرمى الناس بالبلاهة من إذا أتقن السير والجرى ، ثم ظل يحصر همه كله فى توقى العثرات ... حتى لا يكاد يقدم على حركة أو ينشط لمسعى . لأنه عندئذ يهدر قدرته ويجهل مدى طاقتها ، فلا يحسن استغلالها فى غايتها الأساسية التى جعلت لها ، وهى السعى فى مناكب الدنيا لتحقيق أغراض متباينة ، خالى الذهن من مشاغل الأطفال الصغار الذين يتوهمون - وهم ينقلون أقدامهم فى أوائل عهدهم بتعلم المشى - أن كل خطوة إنما هى هوة فاعرة لابتلاعهم !

وهكذا أيضاً تكون مرحلة حصر المهمة كلها فى تجنب النواهى أو الخطايا الأخلاقية فى السلوك قد انقضت منذ أمد طويل ، وصار على الإنسان الذى أتقن السلوك السليم واقتدر عليه أن يعلو بسلوكه واهتمامه فوق مجرد توقى الأخطاء ، لينطلق بسلوكه محققاً فضائل إيجابية ، لا لأنه متحرر من قيد الخطايا عاجز عن التقيد بها ، بل

لأنه صار أرقى من أن يشغل نفسه بذلك ، علوا عليها لا قصورا عن توقيها .

ولكن الذى أتقن السير والحركة مستقلا بنفسه ، بحاجة إلى خريطة ، وإلى بوصلة ، كى يعرف أين يتجه ... فلئن كان من يتعلم المشى بحاجة فى الأسابيع والشهور ، بل والسنوات الأولى إلى من يراقب انطلاقاته ، أو يصحبه ليهديه السبيل حتى لا يضل طريقه... إلى أن يبلغ أشدة فيعرف من تلقاء نفسه ماذا يسلك من السبل ، وكيف يسلكها ، ولماذا يسلكها ، فكذلك الإنسان فى طفولته العقلية والخلقية كان بحاجة إلى من يدلّه على كل خطوة ، ويصحبه فى كل اتجاه . فما أشبهه بالمكفوف البصر ، الذى يحتاج إلى من يأخذ بيده كى يعبر الطريق ، ويرشده إلى غايته .

أما المبصر ، فيستغنى ببصره عن يقود كل خطوة من خطواته ، وكذلك الإنسان متى بلغ أشده حضاريا وأخلاقيا ، تقوى بصيرته على تسديد خطاه فى كل انطلاقاته . فيستغنى بالبصر والبصيرة عن الوصى الملازم له .

هذه البصيرة هى « البوصلة » الداخلية التى لا بد منها لمن يتجاوز طور الأخلاق السلبية المتمثلة فى الناموس ..

وإلى هذه « البوصلة » الداخلية يحيل المسيح الناس ، وهو ضامن لهم ألا تخذلهم فى هداية سلوكهم الإيجابى ، الذى يرتفع كالبناء الشاهق فوق الأساس الغائر فى الأرض ، الذى لا بد منه قبل رفع البناء ، أساس الناموس ، الذى أنزله الله على موسى فى سيناء .

الدعوة الجديدة :
« أنظروا في أنفسكم ! »

— لن تحتاج أيها الإنسان ، إن أنت أمعنت النظر في ذات
نفسك ، أن تذهب إلى بعيد كي تكتشف ينبوع الهداية الذي يكفيك
ويغنيك عن الاهتداء بأي شئ آخر ، أو أى أحد !

هذه هي الدعوة الجديدة !

ولقائل أن يقول أنها تشبه دعوة كانت قبل المسيح بعدة قرون
في ساحات أثينا ، أطلقها سقراط :

— أعرف نفسك بنفسك حق معرفتها !

ولكن دعوة سقراط دعوة عقلية ، أما دعوة المسيح فدعوة روحية
دينية ، لها سند من التوراة ، ومن كيفية خلق الله آدم وسلالته .
إنها الرجعة إلى النبع الإلهي ، رجعة دينية روحية .



« خلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه ! »

هكذا يقول سفر التكوين — أول أسفار التوراة — في الفصل
الأول منه ، في العدد السابع والعشرين .

والصورة هنا ليست الهيكل الجسمي المادى بطبيعة الحال ، بل
الصورة المعنوية الباطنة ، والتي يعنيها الفلاسفة في مقابل المادة غير
المعينة .

فالإنسان ، بموجب هذا النص التوراتي ، بموجب هذا المعنى ،
نفحة من روح الله . وله جسد ذو حياة نامية حاسة يموج بالرغبات
والمطالب .

ووسط مهارج هذه الرغبات والمطالب تنطمس حقيقة الروح
أحيانا كثيرة ، أو تتشوه ويعلوها الصدا . ولكنها لا تندثر .

فمن عرف نفسه حق معرفتها . — بهذا المعنى الروحي — عرف
أن من السماء عنصرها ، وينبغي أن تكون السماء قبلتها دون سائر
القبالات ، وإليها وحدها ينبغي أن يكون اتجاهها ، وبها وحدها يكون
انشغالها .

والله في المسيحية ليس له من تعريف أصنى وأسمى من أنه —
سبحانه وتعالى — « محبة » محبة مطلقة لا متناهية وليست لها حدود .
لأن الجسمي وحده هو الذي يكون متناهي المقدار محدودا في المكان
أو الزمان أو كليهما . أما الله فليس جسما وليس في جسم .

وها هو يوحنا ، تلميذ السيد المسيح الذي كان يحبه يقول في
رسالته الأولى ، في الفصل الرابع منها :

— أيها الأحياء : فلنحب بعضنا بعضا ، لأن المحبة من الله . وكل
من يحب فقد ولد من الله ، ويعرف الله . ومن لم يحب لم يعرف
الله ، لأن الله محبة (٨،٧) .

ثم ينتهي في العدد السادس عشر من ذلك الفصل نفسه قائلا :

— الله محبة ! من أقام في المحبة أقام في الله وأقام الله فيه !

و ن 'تة محبة ، ولأن المحبة قانون الروح الأسمى ، وينبغي أن تكون ينبوع الحى للسلوك البشرى الأمثل ، كانت الصلاة التى علمها السيد المسيح الناس بادية هكذا :

— يا أبانا الذى فى السماء ؟

ومعنى الأبوة هنا هو المعنى المطلق غير الجزئى ولا الجسمى .
بمعنى الأصل ومصدر الإيجاد الأقصى . إنها أبوة الخلق لا التناسل ،
وأبوة العناية والرعاية التى لا انقضاء لها .

وبهذا المعنى يجدر بنا أن نعدّها الأبوة الأصلية ، وأن تكون
أبوة التناسل شبيها بعيدا لها . وإلى هذا يشير المسيح بصريح النص .
فى الفصل الثالث والعشرين من إنجيل متى (العدد ٩) :

— لا تدعوا لكم أبا على الأرض ، لأن أباكم واحد ، هو الذى
فى السماء !

والكلام هنا يعم بنى الإنسان جميعا ، بما أن الله خالقهم — أى
أبوهم السماوى — جميعا ، ولا يخص المنتسبين إلى ديانة معينة .

وإلى هذا المعنى نفسه يشير قول من جادلوا المسيح من اليهود ،
كما ورد فى الفصل الثامن من بشارة يوحنا (العدد ٤١) :

— لنا أب واحد ، هو الله !

مما يدل على أن هذه الابوة كانت قضية مسلما بها قطعا عند اليهود — اتباع الناموس والتوراة — قبل مجيء المسيح .



وماذا يترتب على هذا الاكتشاف الحارق الفريد ، اكتشاف أن صورة الانسان الباطنة ، التي هي حقيقته المميزة له من حيث هو إنسان ، أنه نفحة من روح الله ؟

يترتب عليه شيء خطير ، هو الشعور العميق بالاغتراب في حياة الجسد على الأرض . ويترتب على عمق الاغتراب عمق الحنين إلى موطن الإنسان الحقيقي . موطنه الروحي .

وبهذا لا تنفرد النوازع الذاتية الجسمية بالسلطان عليه ، ذلك السلطان الذى يجعله يستسلم لها وينقاد ، وأحيانا يتهالك عليها . فأمام هذا القطب الذى تمثله جاذبية الذاتية الجسمية ، يقيم هذا الاكتشاف الروحي قطبا للجاذبية أقوى منه بما لا يقاس . قطبا للجاذبية العلوية المضادة للجاذبية السفلية .

عمق الاكتشاف وعمق الاغتراب وعمق الحنين يتوقف على ماأشرنا إليه في فصول سابقة من قوة الاستعداد للتقمص الوجداني ، أى الاستعداد النفسى للإيمان .

فبقدر شدة هذا الإيمان تكون شدة الاتجاه إلى القطب العلوى — وهو الله — والتلهف على الخلاص من القطب السفلى الذى يمثل

جاذبية الجسد ونوازعه للتفرغ للحياة الروحية ، حياة المحبة الخالصة ..
أما من قصرت قوة إيمانه بمصدر عنصره الحقيقي ، فطبعى ألا
يتجه إليه بجميع نفسه وجميع قلبه وجميع ذهنه ، ويظل موزعا
بين الروح ومطالب الجسد ، فلا يتم « خلاص نفسه » .

وهكذا يتجلى ما تتسم به المسيحية من « استقطاب » روحى . أى .
الاتجاه إلى قطب الجاذبية الإلهى الروحى بمجموع العقل والقلب
والنفس .

أليست هذه هى الوصية الأولى ، كما جاءت فى سفر التثنية .
بالتوراة :

— أحب الرب إلهك من كل نفسك وكل قلبك وكل ذهنك ؟

وهل بعد هذا الانصراف الكلى بمجموع النفس والقلب والذهن .
تبقى بقية من المرء للاهتمام بالأرضيات والنوازغ الجسمية ؟

وهكذا يستأثر القطب الإلهى الروحى — قطب المحبة الخالصة —
بالإنسان ، بحيث يكاد يتلاشى تأثير القطب المقابل ، وهو القطب
الجسدى السفلى ...

وعندئذ يتلخص دستور السلوك فى بند واحد ، هو المحبة .
الخالصة التامة .

والمحبة هى العطاء . أى منح الذات للمحبوب . ووقف كل

تشاط المرء وحياته عليه وعلى خدمته . والمنح هو الكرم . وهكذا
تدخل مجال « مكارم الأخلاق » .

وبعبارة أخرى تكون المحبة ليست تتجاوز الذاتية (إلى الموضوعية)
فحسب ، بل الانتصار على الذاتيه بعملية « إيثار » من جميع الوجوه
في شتى المجالات . فكل انتصار على « أثر » الذات والذاتية ،
وكل دحر لهما ، فهو تمكين للإيثار . وإقامة للملكوت « مكارم
الأخلاق » .

وبمعنى آخر ، تكون دعوة المسيح ، علوا على ناموس
« الموضوعية » و « العدل » ... هي الدعوة إلى البر الصحيح . البر
الروحي . إلى التفرغ الكامل للإيثار ، ومكارم الأخلاق .

ولكن كيف ؟ ..

وكيف يعيش إنسان متفرغا لمحبة الله ؟

أمعنى هذا أن السبيل الأوحد للحياة الفاضلة ، هو سبيل العزلة
للتعبد والهيام في الحب الإلهي ، ونفص اليدين من كل عمل إلا
التهجد والتسبيح ؟

ما من شك - بداهة - أن هذا السبيل أسلوب يتفق منطقيا مع
خلوص القلب والاتجاه بمجموع النفس والذهن وبأقصى الطاقة
إلى الله . ولكن أهو السبيل الأوحد ؟
كلا ! ليس هذا هو السبيل الأوحد .

فإن الله خالق الكل . والبشر جميعا أبناء هذا الأب السماوي :
فالبشر جميعا إذن إخوة في الله ، يستوى في هذا من يعرف هذه
الحقيقة ومن يجهلها .

فن يحب الأب ، يحب لحبه أبناءه جميعا .

ومن يحب الله ، يحب جميع البشر ، لأنهم أبناء الله .

وإلى أبوة الله للجميع - هذه الأبوة الفريدة التي تجعل خليفته من
البشر جميعا أبناء له بهذا المعنى الرفيع - يشير بولس في رسالته
إلى أهل أفسس ، في الفصل الرابع منها ، بقوله :

- إله واحد وأب واحد لكل ، الذي على الكل ، وبالكل ،

وفي كلكم .

أو كما جاء في الترجمة الكاثوليكية الحديثة (العدد ٦) :
— إله واحد أب لجميع الخلق وفوقهم جميعا ، يعمل فيهم جميعا ،
وهو فيهم جميعا .
والمعنى في الترجمتين واحد ، وهو يبرز أبوة الله لجميع خلقه .

والابن الحق ، الذي يحب أباه حقا ، هو من يحاكيه وينسج على
منواله . والله محبة . فمن يحبه حقا تكون حياته كلها ومشاعره كلها
وأفعاله كلها محبة خالصة لعباد الله أجمعين ، لأنه سبحانه يحبهم
أجمعين ، ويعولهم ، ويكلأهم بعنايته الصمدانية في كل حين .
الله محبة . والله كامل .

فأبناء الله إذن ينبغي أن يكون الكمال شغلهم الشاغل !
وها هو يوحنا في رسالته الأولى يصبح بالمعهد فيه من الحمية
والحماسة المتقدة :

— كل مولود من الله لا يقترف الخطيئة ... لا يسعه أن يخطئ
وهو مولود الله ! وشد ما يختلف أبناء الله عن أبناء إبليس ، فمن
لا يعمل البر ليس من الله (٣ : ٩ و ١٠)
وأى عجب في هذا ؟

أليس المسيح نفسه هو القائل في موعظة الجبل (متى ٥ : ٤٨) ،

— فكونوا أنتم كاملين كما أن أبائكم السماوي كامل !
كاملين في المحبة . أي محبتهم لا استثناء فيها لأحد ، بل تشمل
الكافة من بني الانسان .
أبلا استثناء حقا ؟

أجل ! ولا مناص من هذا لمن أراد أن يكون مولودا لله !
ولذا كانت الوصية التالية مباشرة ، في سفر التثنية ، للوصية
الأولى والعظمى التي هي محبة الله :
— احبب قريبك حبك لنفسك !

وها هو المسيح يقول بالنص في موعظة الجبل (متى ٥ : ٤٣) .
— سمعتم أنه قيل « احبب قريبك وأبغض عدوك » !

أما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وادعوا لمضطهديكم وأحسنوا
إلى من يبغضكم لتكونوا بني أبيكم الذي في السموات .

ويدل بالسبب ، أو « الحثيات » لهذه الوصية الفذة :
— .. لأن الله يطلع شمسهِ على الأشرار والأخيار على السواء ،
وينزل غيثه على الأبرار والفجار ! فان أحببتم من يحبكم فقط ،
فأى فضل لكم ؟ ...

ونقرأ أيضا في إنجيل لوقا (٦ : ٢٧ / ٣٦) :
— أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى مبغضكم وباركوا لاعنيكم ،

وادعوا للمفترين الكذب عليكم ... فان إحييتهم من يحبكم فأى فضل لكم ؟ الخطاة أنفسهم يحبون من يحبهم ! وإن أحسنتم إلى من يحسن إليكم ، فأى فضل لكم ؟ الخطاة أيضا يفعلون ذلك ... ولكن احبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا غير راجين شيئا فيكون أجركم عظيما وتكونوا « أبناء العلى » حقا . لأنه يجود على الجاحدين والأشرار . كونوا رحماء لأن أباكم رحيم ! .

الله رب الجميع بلا استثناء . أب الجميع وكافلهم بلا استثناء . فالجميع إذن إخوتك بلا استثناء : العدو منهم والصديق .

— ... وليس من الله من لا يحب أخاه !

هكذا يقول يوحنا في رسالته الأولى (٣ : ١٠) .

بل ويقول هو نفسه في تلك الرسالة أيضا بعد سطور (٣ : ١٤) :

— ونحن نعلم أننا انتقلنا من الموت إلى الحياة (الروحية) لأننا نحب إخوتنا . ومن لا يحب فهو باق رهن الموت !

نحب الله ونحب إخوتنا أجل !

ولكن كيف ؟

— محبتنا لا تتحقق بالكلام أو اللسان . بل بالعمل والحق !

— ومن كانت له خيرات الدنيا ورأى بأخيه حاجة فأغلق أحشاءه دون أخيه ، فكيف تقيم محبة الله فيه ؟

— إن الله لم يره أحد . فاذا أحب بعضنا بعضا أقام الله فينا ،
وتمت محبته فينا .

— وإذا قال أحد « إني أحب الله » وهو لا يحب أخاه (في الله)
كان كاذبا . لأن الذى لا يحب أخاه وهو يراه لا يستطيع أن يحب
الله وهو لا يراه . فمن أحب الله أحب جميع إخوته (في الله) .

فالمطلوب بشريعة المحبة الكاملة أن تجرد بنمस्क كلها . وتمنحها
للجميع . لأن الجميع — وإن بدوا فى الظاهر غرباء أو أعداء — هم
فى الحقيقة ليسوا أقرباءك فقط ، بل هم إخوتك فى الله .

ان الناموس التوراتى يقيم الحدود بينك وبين سواك . يقوم بما
يمكن أن نسميه بالمصطلح الحديث عملية « فك اشتباك » أو « فصل
القوات المتعادية » . وكأنه سور تتحصن به أنايتك بازاء الآخرين .
أى بازاء أولئك الذين تطلب منك المحبة ألا تحتجز دونهم شيئا ، بل
تمنحهم نفسك كلها ، وما تملك .

وإلى هذا التفريق بين عدل أو موضوعية الناموس التوراتى ،
وبين « الإيثار » أو المحبة المسيحية ، يشير بولس فى رسالته الأولى
إلى معاونه تيموثاوس ، الذى يدعو « ابنى الذى ولدته بالإيمان » !

— إن الناموس لم يوضع للبار ، بل للآثمين والعصاة والفجار
والخطاة ومستبيحي الحرمات ومدنسيها . لقاتلى آبائهم وأمهاتهم ،

لسافكى الدماء والزناة . لمضاجعى الذكور والنخاسين . للكذابين
والحائشين . ولكل من يخالف التعليم السليم ...

أما أبناء الله فيحبون ، ولذا يعطون بلا حدود .

والهالكون معتدون . لذا وجد الناموس لتكبيهم . إنه يحدد لهم
الطريق ... لأنهم عميان القلوب لا يرون من تلقاء أنفسهم أين ينبغي
أن يسلكوا .

المحبة تهذيب داخلى فطرى .

والناموس كمامة على فم وحش !

المحبة رحمة ورفق وحنان وعطاء .

والناموس قيد يكبل يدى فاتك معتد أثيم . أو أسلاك شائكة
تحول بينه وبين ما تنزع إليه نفسه من الجور والعدوان .

الباب الضيق !

هذه المحبة الكاملة العجيبة . هل هي مما تسلس له القياد طبيعة البشر ؟ .

إنها تقتضى أن تتحول من إثبات ذاتك والتمكين لها ، إلى الجور على ذاتك ، حتى كأنك موكل بافنائها ، تبذل منها بغير حدود ، وبلا تفرقة . والأصل فى غريزة الحياة حفظ الذات وتأكيدها والتمكين لها . فهذه هي قطرة جميع الكائنات الحية .
فهذه المحبة أذن على نقيض الغريزة الحيوية .

وإنها كذلك !

فالمسيح بصريح النص يقول :

— ما أضيق الباب وما أوعر الطريق المفضى إلى الحياة الأبدية .

أى إلى الحياة الروحية ، حيث الروح قبس من روح الله . ذلك أن المحبة الكاملة هي صفة الله وحياته سبحانه . والتشبه به ، عن شغف وحنين وانتماء تام ، إنما هو — كما قلنا آنفاً — سلوك « استقطابى » ... يضاد الحياة العضوية ويتنكر لها كي يتجه بمجموع الهمة إلى القطب المناقض لها .

فأى عجب فى أن يوصف هذا بأنه عسر لا يسر فيه . وأن باب الحياة الروحية ضيق ، لأنه لا يتسع إلا لمرور الروح الشفافة متجردة من كل شوائب النزعات الحسية الجسدية الغليظة ؟ .

وأى عجب أن يوصف الطريق إلى هذه الحياة بالوعورة
المفرطة ، لأنها وعورة انتزاع النفس من متعلقاتها الحيوية الطبيعية ؟
ويذهب علماء النفس إلى أن الحب البشرى تلازمه دائماً كراهية
كامنة ، كأنها تكون مع الحب وجهى عملة واحدة .

ولكن المحبة بالمعنى الذى تطلبه المسيحية وتتقاضاه من المؤمنين
بها من نوع مختلف عن ذلك المألوف فى الحب البشرى .

— أحبوا أعداءكم !

وكيف نراهم أعداءنا ونحبهم ؟

هذا مستحيل طبعاً . والحل الوحيد ألا نراهم ولا نحسبهم أعداء
لنا . بل إخوة . وليكن شعورهم نحونا أنهم اعداؤنا . هذا شأنهم .
أما نحن فعلينا — إن أردنا تلك الحياة الروحية الربانية — ألا يكون
شعورنا بهم صورة من شعورهم الردى بنا . وبذلك نحبهم ولا
نبغضهم مهما أبغضونا !

أهذا ممكن ؟

إن الطبيعة البشرية مغروس فى فطرتها دفع الخطر الذى يهددها .
فالتنبه لأى عداء يستثير الدفاع ، أى العداء . طبقاً لقانون رد الفعل .

وهذا بالضبط ما ترفضه المسيحية !

فما هو معنى سلوكية رد الفعل ؟ معناها أن الطرف الآخر يملك

زمامك في جميع الأحوال ، ويتصرف فيك . لأنك تشكل تصرفاتك كلها على أساس ما يصنعه .

والنتيجة الحتمية لسلوكية رد الفعل ، أن يصنع الطرف الآخر الشر أو يرتكب الخطأ في حقك ، فتزد على الشر بالشر ، وعلى الخطأ بخطأ آخر ، فإذا هناك شران لا واحد ، ونخطآن لا واحد . وهكذا يولد الشر الشر ، ويتكاثر بلا حدود .

أما إذا غفرنا للمسيء إلينا ، كما يغفر الله لنا ذنوبنا ، عندئذ يصاب الشر بالعقم ولا يتوالد . ويعجز العائب عن جرك إلى مستوى العيب في مقابله . ومهما تمرغ في أحوال العيب والإساءة ، أكرمت نفسك عن التمرغ مثله في هذه الأحوال .

وهكذا يصنع كل واحد ما يليق به هو ، لا ما يليق بالآخر ... ويعلم كل واحد زمام نفسه ويحافظ على مستواه .



ولكن يبقى السؤال معلقاً : أعسر هذه الدعوة أم يسر ؟ ..

المسيح يقول أنها عسر !

وهو في هذا ينظر إلى الطبيعة البشرية بغرائزها الحيوية الجبارة : من حب الذات ، والعمل على صيانتها وحمايتها ، والاستماتة في دفع المكاره والعداوات عنها ، وأيضاً من الاستماتة في التمكين لها بالقوة

والنفوذ والجاه والمال . وكذلك فى غريزة الجنس المركبة فى أعماق كل كائن حى لمقاومة فناء النوع والعمل على استمراره .

وأمام كل هذه النوازع ، لابد أن تكون دعوة الخلوص للحياة الروحية والانتصار على الذات الحيوية على طول الخط دعوة عسيرة التحقيق أشد العسر . فما أشبهها بالدعوة إلى التغلب على الجاذبية الأرضية .

وليس الكل يستطيعون هذا بل « الذين أعطوا موهبة من الله فحسب » أى الذين « ولدوا من فوق » ولادة روحية جديدة .

وهى إشارة باطبع إلى تفاوت الاستعداد للروحانية ، وعلى هؤلاء الذين لم يصلوا إلى القداسة أن يعانون عذابات انتزاع نفوسهم الحيوانية ، وهى عذابات تعادل الاحتضار الأليم ، بما تنطوى عليه من مقاومة الحرص الفطرى على الحياة الدنيا .

وهذا هو العسر العسير ، أو الجهاد الأكبر ، جهاد النفس الأمار بالسوء .

ونخلق بنا فى هذا المقام أن نتذكر حقيقة علمية — أشرنا إليها فى فصل من الباب الأول — صارت من المعلومات الشائعة فى عصرنا . ألا وهى تفاوت الناس فى تركيب ونشاط غددهم الصماء ، أى التى تفرز هرمونات تسرى فى دماهم ، وليست لهم فى ذلك حيلة .

فبعض هذه الهرمونات يزيد من الميل للعدوان ، أو الميل القهرى أو شبه القهرى إلى ممارسة الجنس . أو إلى الشذوذ . وإلى

هذا الفريق من البشر تعزى الأنماط المطبوعة على الإجرام ، والتي لا يجدى معها ردع أو وعظ أو محاولة تألف وتهذيب .

والطب النفسي العلاجي في العالم المتقدم يعالج هؤلاء إما بالجراحة أو بالعقاقير ، للتحكم في غددهم الصماء الحارقة للنمط السوى ، ورد إفرازاتها إلى الحدود السليمة ، فاذا بهم يبرأون من شذوذهم القهري الذي كان يملكهم ويهيمن على سلوكهم هيمنة تحول بينهم وبين السلوك الذي يقره العرف والقانون ، والأخلاق والدين بطبيعة الحال ... لأن حالتهم المرضية تمنعهم عن تجاوز ذواتهم ذلك التجاوز الذي لا بد منه للوصول إلى عتبة المستوى الموضوعي ، الذي لا قيام بدونه للأخلاق في حدها الأدنى ... وهو الخضوع لمبدأ كلى أو مكيال واحد للذات وللغير على حد سواء .

وتفاوت إفراز الغدد الصماء دليل علمي حاسم على تفاوت استعداد الناس للقدرة على تجاوز ذواتهم . ونأهيك بعد هذا بالانتصار على الذات والعمل على ما يضادها ويكاد يلاشيها !

فإن الناس من تسلس نفسه القياد للمبادئ بسهولة ، ومنهم من تشبه نفسه ونوازعها الجواد الحرون أو الجموح . فليس التغلب على النفس وجهادها في الحالين سيان .

ولكن تبقى بعد هذا مراتب الكمال الخلقى في نهاية المطاف رهنا بالاستماتة في جهاد النفس على قدر الطاقة ...

نقول على قدر الطاقة ... ولعلم النفس هنا كلمة !
وتدور هذه الكلمة حول « الكبح » . وحول « الكبت » .
فلا بد من التفريق بين المعنيين :

أنت « تكبح » غريزتك الفطرية ، كما يكبح الفارس دابته
القوية الشكية . ويظل يقظا لعملية الكبح لا يغفل وعيه عنها بحال.
من الأحوال ، وإلا قلبته دابته وأوقعته عن ظهرها .

أما الكبت فمسألة أخرى . إنه نبذ الرغبة لشدة التأثم منها ، بحيث
تتوارى في اللاشعور ، ويطويها الرقيب في ظلمات هذه البئر العميقة
ولا يسمح ببروزها ، أو بروز كل ما يتصل بها أو يذكر المرء بها
إلى سطح الشعور أو الوعي . فتظل كجوف البركان الذى يمكن أن
يضطرم ، فيحدث الزلازل ، أى الأمراض النفسية .

فالكبح لا يؤدي لمرض نفسى ، أما الكبت فيتسبب فى
أعراض كثيرة ، كى تصل إلى المرض النفسى الصريح .

فجهاد النفس قائم على اليقظة لهذه النوازع الذاتية المكبوحة ،
وتحويلها — عن قصد — بطريق التسامى إلى أنواع من النشاط المنزه
عن الإثم ، ولكنه يستخدم الطاقة الطبيعية لتلك النوازع التى تم
تحويلها إليه ، كما يتم تحويل مجرى الماء لتتولد عنه طاقة الكهرباء
مثلا

وهكذا يجب على المتسامي برغباته ، أن يظل في حالة تنبه لتلك
الرغبات الفطرية التي لا تموت معها كبحت أو كبنت ، حتى لا تأخذه
على غرة ، في أى لحظة من اللحظات .

وبهذا يكون الجهاد الأكبر ، جهادا مستمرا ، أو « شوطا بلا
انتهاء » .

وهذا هو العسر بعينه !

وعلى هذا المجاهد ، المتجه إلى الانتصار على الذات ، تمكيننا
لحياته الروحية القائمة على المحبة والعطاء ، أن يدرك أن ممارسة المحبة
معناها الانفتاح على الناس والتعامل معهم بمقتضاها .

وهنا سيجد شراكا كثيرة من المغريات ، التي تداعب نزعاته
التي يصددها ويكافحها .. فما أكثر ما تورط الشفقة والرحمة في
أنواع من العشق الذاتي ...

أى أن عليه أن يخوض النار ، من غير أن يحترق بها . وأن
ينحذر من الغرق ، وهو يظن أنه وضع قدميه على بر الأمان .

فما أكثر شركاء العالم

لهذا ينجو كثيرون بأنفسهم من العالم وشراكه ، ليتفرغوا
لخلاص أنفسهم .

ولكن العالم حقل الله . وهو بحاجة إلى الحراثين والحصادين .

وفيه يكون جهاد من تتقد نفسه بالمحبة ، فلا يكفيه أن يخلص نفسه
وينجو بها ، بل يكون أكبر همه خلاص إخوته . أبناء هذه الدنيا ...
ففي معتركها جهاد المحبين الحقيقيين ...

فهؤلاء فرسان الله ! ... الذين ينزلون عن جميع حقوقهم ،
ويتحملون راضين كل صنوف الواجبات ... بدافع المحبة لله في
أشخاص خلقه .

طريق الشوك ...

ما أضيق الباب وما أوعر الطريق !

ووعورة الطريق ، هي التي تجعل سلوكه « جهاداً متواصلاً » .
ومتى تغلب المجاهد على وعورة الطريق ، ترك في مراقبها ،
وعلى أديمها علائقه الذاتية ... ونفذت روحه الشفافة من الباب .
الضيق .

وعن « أشواك الطريق » الوعر .. طريق « قهر النفس » نسوق .
حديثنا .

وهي أشواك تنبثها النفس البشرية بتكوينها الحيوى . وكلها
متصلة بتأكيد الذات وصيانتها وتضخيم سطوتها .

وأول ما يتبدى هذا منها فى شهوات الفم ، أو شهوة الطعام .
والشراب . والطعام والشراب ضرورة تذوى بدونها الكائنات
الحية ، أبتداءً من النبات . فلا بد للكائن الحى - أيا كانت صورته .
- من التغذى كى ينمو ، وكى يستمر فى البقاء . ولكن النفس
البشرية تتجاوز هذه الضرورة التى لاغنى عنها ، فتجعلها شهوة
متعددة الأفانين ، وتفتن فى تنويع أشكالها ، حتى تنقلب لمدة تطلب
لذاتها . وبذلك تغدو غاية بعد أن كانت وسيلة .

ولذا كان جهاد هذا الهوى المبتدع من أهواء الذاتية أول واجب .
ينحوض غمراته من يرجو قهر الذات الدنيوية . والصوم لترويض .

هذه الشهوة للطعام سلاح طبيعي في حومة هذا الجهاد . ولكن الصوم لابد أن يعقبه فطر ، وعندئذ يجد الصائم ضالته في القليل من الزاد الطبيعي ، مما تنبتة الأرض غالباً من خضر وبقول ، وله أن يصيب من اللحم بين الحين والحين ، إصابة غير هائم أو منهوم .

وأذكر في هذا المقام ما كان من أمر رجل اشتهر بحياة الزهد والتقوى ، عاش حتى أوائل هذا القرن في بعض أقاليم مصر . اشتهت نفسه أكل الحمام . فكلف تابعه أن يعد له زوجاً من الحمام المحشو بالفريك أو الأرز . وكانت المرة الأولى التي يشتهي فيها شيئاً كهذا ، فعجب التابع وبادر بأعداد وجبة أتقن صنعها من هذا الصنف . وأتى به الرجل الزاهد ، فوضعه ناحية من خلوته ولم يقربه أياماً متوالية ، حتى أنتن وفاحت رائحته المغيثة . وعندئذ قربه منه ، وجعل يناجي نفسه قائلاً :

— هذا ما اشتهيته يا نفسي ! فلماذا لاتملئين منه جوفك الآن !
هلمى كليه !

وظل يقرع نفسه على هذا النحو ... فكان هذا آخر عهده بإشتهاء لذة المطعوم والمشروب .



وتأتى من بعد هذه الشهوة الأولية ، شهوة الجنس . وفي هذا يقول بولس : (قورنثوس ٧)

— يجمل بالرجل أن لا يمس امرأة — ولكن ، خوفا من الزنى ،
فليكن لكل رجل امرأته . ولكل امرأة زوجها ... لا سلطة للمرأة
على جسدها فانما هو لزوجها ، وكذلك الزوج لا سلطة له على
جسده فانما هو لامرأته .

فالأصل هو العفة ، وأما من لم يستطع حياة العفة التامة ،
فليجعل الزواج رخصته حتى لا يقع فى خطيئة الزنى . وهذا فعلا
ما صرح به بولس بعد سطور قليلة من عبارته آ نفة الذكر :

— أقول لكم هذا للاجازه لا الأمر ، فاني أود لو كان جميع
الناس مثلى ! (أى بغير زواج يعيشون فى عفة تامة) .

— وأقول لغير المتزوجين والأرامل أنه يحسن بهم أن يظلوا مثلى .
فاذا لم « يطيقوا » العفاف فليتزوجوا ، فالزواج خير من التحرق
بالشهوة . . .

فلئن كان الصوم المتصل بلا فطر مستحيلا ، لأن الغذاء ضرورى
لحياة الجسد ، فان الجنس ليس بهذه الحتمية ، وكل ما هناك أنه
قوة عاثية ، وحظ الناس من عتوها وسطوتها متفاوت ، وحظهم
من الإرادة والقدرة على كبحها متفاوت كذلك . فمن لم يستطع
الامتناع التام — وهو الأفضل لحياة الروح — فليجعل لهذه الطاقة
الجارفة منفسا فى الزواج من امرأة واحدة ، حتى لا يتحرق بالشهوة ،
فيشغله هذا التحرق عن حياة الروح ، من عبادة ، ومن محبة نزيهة

غير مغرضة لخلق الله كافة كما ينبغي . فالزواج إذن إنما هو علاج ،
أو هو « أهون الشرين ! »



والشهوة الثالثة فى القوة والجبروت هى شهوة التمكين للذات
بما يشبع زهوها وغرورها من كرامات المناصب والمظاهر والنفوذ.
وهذه أيضا تحتاج إلى سلاح لقهرها . فمن شغله الزهو انحصر فى
ذاتيته وانصرف عن ممارسة المحبة التى هى عطاء ومنح ، وتخصيص
الهمة كلها لإسداء الخير للجميع بلا تفرقة .

وبقهر الزهو والعجب تقوم فضيلة التواضع ، بكل ما يميزها
من سماحة ، ولين جانب ، ودماثة .

وفى هذا المجال - مجال شهوة الزهو والتعظيم والتشامخ والتكاثر
بالجاه والنفوذ - تتجلى ضراوة الصراع بين الناس ، ذلك الصراع
الذى يناقض المحبة على طول الخط . فالتعظيم أو حب السيطرة
تضخيم للأناية الذاتية وإذلال للآخرين . فى حين أن المحبة إعزاز
للآخرين وتكريم لهم وسعى فى خيرهم .

ولعل معظم ما فى الدنيا من شرور مرده إلى حب السيطرة
الذى يركب الأفراد والدول على السواء ، فاذا بالإنسان ذئب لأخيه
الإنسان .

وواضح أنها شهوة ليست لها أسانيد من الضرورة ، أو شبه
الضرورة ، شأن الغذاء والجنس .

فلا غرابة في أن يكون هذا المجال هو ميدان الجهاد الأكبر ، جهاد النفس الأمارة بالسوء ، لأن حب السيطرة هو الذي يثبت أركان الذاتيه المضادة لحياة المحبة الروحية ، فهو يجعل من الناس فرائس لهذه الشهوة التي لا تشبع ، في حين تجعلهم المحبة الصحيحة موضوع الصيانة والحدب والرحمة ..

قيمتك عندما يملكك حب السيطرة فيما تحوز ، وما تستولى عليه ، وما تأخذه . أما قيمتك عندما يملكك روح المحبة ففيما تعطى لا فيما تأخذ .



وليس حب السيطرة قاصرا على طلب الجاه الاجتماعى فحسب . وإنما هو هوى في النفس متصل غالبا بغريزة المقاتلة . هوى يجد له متنفسا في كل مجالات الحياة الخاصة والعامة . وكثيرا ما يتجلى في داخل العلاقة الزوجية نفسها : حيث يحاول أحد الزوجين - أو كلاهما أحيانا - أن تكون له السيطرة النفسية والفعلية على الآخر . ولا يعف عن استخدام أيما سلاح يتيسر له : سلاح الجمال ، أو سلاح المال ، أو سلاح الوضع القانوني . فتغدو الحياة . بينهما صراعا على السلطة ، غايته أن تكون لأحدهما الكلمة العليا بالإطلاق ، لا لمصلحة مشتركة بل إشباعا للغرور الذاتى والزهو .

فأيما انسان يملك سلطة يمكنه استخدامها لمصلحته الخاصة ، وإشباعا لزهوه ، عرضة للافتتان بسلطانه ، وبذلك تتضخم الذاتيه ،

ويسد كل طريق يفضى إلى ضدها ، وهو حياة المحبة التى تقوم على
قهر الذات ونوازعها الذاتية .

بل قد تنفذ الأنانية الذاتيه بالزهو والغرور من منافذ يظن صاحبها
أنه سدها بعفته فى أمور الطعام والجنس ، وزهده فيها . وذلك بأن
يركبه العجب بنفسه لاقتداره على هاتين الشهوتين ، فيظن أنه صار
بذلك أسمى معدنا من بقية الناس المستسلمين لضعفهم ، فينطوى
— من حيث لا يدري— على ازدرائهم والتعالى عليهم . والتعالى نقيض
المحبة والرحمة !

إنه غرور التقوى المظهرية . فلا تقوى حقيقية إلا مع التواضع ،
وإسائه الظن على الدوام بالنفس الأماراة بالسوء ، واليقظة لها ، حتى
لا تعوقه عن منبع كل خلق كريم فى المسيحية ، وهو المحبة والرحمة .

المحبة التى تتنافى وتتناقض مع حب الذات . بل الإهانة تأبى
المحبة الكاملة أن يردها من أهين ، وحين يهضم حقه لا يثار ، بل
يتسامح . ومن ضربه على خده الأيسر ، أدار له خده الأيمن .
فذااته لا تعنيه . وليست الشحناء من خلقه ، لأن الشحناء ليست من
مكارم الأخلاق

الوثن الأكبر !

ولعل العقبة الكبرى على طريق الحياة الروحية ، هي ذلك
الوثن الذى ظل على مدى الأجيال وثنا أكبر تهافت عليه النفوس
البشرية ، تهافت الفراش على النار !

وثن هو ، يقع المتعبد له فى الشرك بالله ، من حيث إن « الله
محبة » ، لأن عبادة هذا الوثن تدفع المرء الى نوع من افتراس الناس ،
وهم المفروض فيهم أن يكونوا أحباءه الذين يعيش لخيرهم لا لخيره
الخاص .

هذا الوثن هو حب المال !

ولذا يقول المسيح فى إنجيل لوقا (١٦ : ١٣ و ١٤)

— لا تستطيعون ان تعملوا لله وللمال !

ويقول بولس فى رسالته الأولى إلى تيموثاوس (٦ : ١٠)

— حب المال أصل جميع الشرور ، الذى إذا ابتغاه قوم ضلوا
عن الإيمان وأصابوا أنفسهم بآفات كثيرة .

وفى موعظة الجبل يقول المسيح (متى ٦ : ١٩ / ٢١)

— لا تكنزوا لأنفسكم كنوزا فى الأرض ، حيث يرعى السوس
والعث ، وينقب اللصوص فيسرقون ، بل اكنزوا لأنفسكم كنوزا

فى السماء ، حيث لا ىرعى السوس والعث ، ولا ىنقب اللصوص
لىسرقوا فحيث ىكون كنزك ىكون قلبك !

وفى إنجيل متى (١٩ : ١٦ / ٢٤) نقرأ هذا الكلام الصريح :

« وإذا برجل ىدنو من يسوع المسيح فىقول له :

— يا معلم ! ماذا أعمل من الخير لأنال الحياة الأبدية ؟

فقال له المسيح :

— لماذا تسألنى عن الخير ؟ إنما الخير واحد . الزم الوصايا .

فقال له الرجل :

— اى وصايا ؟

فقال يسوع :

— لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد بالزور . أكرم أباك
وأماك . أحب قريبك حبك لنفسك .

فقال له الشاب :

— هذا كله حفظت . فماذا يعوزنى ؟

فقال له يسوع :

— إذا أردت ان تكون كاملاً فاذهب وبع ما تملكه وتصدق به
على الفقراء . فىكون لك كنز فى السماء . وتعال فاتبعنى !

فلما سمع الشاب هذا الكلام مضى حزينا لأنه كان ذا مال كثير .

فقال المسيح لتلاميذه :

— الحق أقول لكم : يعسر على الغنى أن يدخل ملكوت السماء .
وأقول لكم : أن يدخل الجمل في سم الخياط (ثقب الإبرة) أيسر .
من أن يدخل الغنى ملكوت السماء !

فدهش التلاميذ لهذا الكلام دهشا شديداً .. »



فهل معنى هذا أن المال رجس في حد ذاته ؟

لم يقل بولس أن المال أصل جميع الشرور . بل قال إن « حب »
المال أصل جميع الشرور .

أما المال فليس خيراً في ذاته ولا شراً . لأنه مجرد وسيلة للتعامل .
فإن استخدمت هذه الوسيلة للتعامل بمحبة ، أى لخدمة الناس وإسداء
الخير والمعروف ، فهي خير ، وإن استخدمته للاضرار بالناس
والإثراء على حساب احتياجاتهم واستغلال اضطرابهم وظروفهم ،
فهي شر .

فحب المال ينزع من القلب محبة الناس ، ويحولهم إلى « مجال »
للاستغلال المادى لضائقتهم ، كي يبتزهم ويثري من دماءهم
وعرقهم .

فالمنهى عنه هنا هو الاستغلال توصلاً إلى الإثراء ، فذلك فعل
تمليه الذاتية الأنانية المعتدية ، وهي نقيض المحبة المانحة الرحيمة .

من يحب يرحم ، ويواسى فى الضيق والمحنة . أما المستغل
فينتهاز فرصة الضيق والمحنة لبيع السلعة بأضعاف أضعاف ثمنها .
وهكذا يتناهش الناس بسبب حب المال .

فحب المال أبرز مظاهر النشاط الذاتى المسعور . أما من يملك
المال ليبذله فى الخير ، فهو محب للخير مهلك للمال .

فان أحببت المال وتعلقت به — سواء كنزته حيث يأكله السوس
أو أنفقته فى ملذاتك الجسدية والمظهرية ، فذلك شر ، لأنه يصرف
همك كله إلى تضخيم أنايتك ، وبالتالي يبعدك عن الإيثار والمحبة ،
التي هى من الله والله .

حب المال يؤكد عبوديتك للجسد والأناية ، وعلى حد تعبير
بولس فى رسالته إلى أهل روما (٨ : ٧) .

— لأن اهتمام الجسد هو عداوة الله ! ... فان الذين يسلكون سبيل
الجسد ينزعون إلى ما هو للجسد . والذين يسلكون سبيل الروح
ينزعون إلى ما هو للروح ... ونزوع الجسد تمرد على الله ، والذين
يسلكون سبيل الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله !



ولكن الزهد الكامل في المال ، شأنه شأن الزهد الكامل في شهوة الجنس ، وشهوة الأكل والشرب ، ليس موهبة ميسرة للجميع. الطبائع البشرية على حد سواء .

فكما يتزوج من لا يطيق التبتل والعفة الكاملة ، كذلك يمارس الكسب من العمل وغيره من لا يطيقون النسك والتخلي عن المال جملة . ولكنهم يمارسون أمور المال لا عن تعلق به ومحبة له ، بل لاستخدامه ، في سبيل الخير ، وفي « خدمة » المحبة :

هؤلاء يتعاملون بالمال ، وربما أيضا بالملكات ، ولكنهم لا يهتمون بها حبا . بل يعلمون أن المال مال الله ، وأنهم وكلاؤه عليه . يوجهونه ويصرفونه في كل ما يرضيه سبحانه من وجوه الخير .

أما من يكون « المال والثراء همهم » فهؤلاء مثلهم مثل البذرة الجيدة التي سقطت وسط الشوك ، في مثل الزارع المشهور الذي ضربه المسيح في إنجيل متى (١٣ : ٢٢) .

— وأما الذي زرع في الشوك فهو الذي يسمع كلام البر ويكون له من « هم » الحياة الدنيا ومن « فتنة الغنى » ما يخنق الكلام فلا يعطى ثمرا .

أما محبو الله ، فهم بالتالي محبو عباده ، فلا يمكن أن تكون

هم وممتلكاتهم فتنة لهم . وزينة الحياة الدنيا ليست همهم ، بل همهم المحبة والرحمة . فالمحبة هي الكنز الذي لا ينضب .

إن كل كنوز الدنيا تنقص بمقدار ما تبذله منها للآخرين ،
أما المحبة فتزيد كلما أفضت منها وتتأصل وتركو ...

ذاك المحب إن كان ذا مال لم تكن أمواله له - كثرت أو قلت -
بل لإخوته . وبذلك يكون هو وما يملك لإخوته ... أي لله !



الشجرة الطيبة

وما القول فيما لاتستقيم حياة الناس بدونه ؟ ما القول فى العمل ؟
وهل يفرغ الناس له أم للعبادة ؟ .

العمل أيضا يمكن أن يكون خدمة للناس . وإيثارا لهم . ورفقا
بهم . وحديبا عليهم . وعندئذ يكون ضربا من العبادة . أليس الله
غنيا عن العباد ؟ وأليس العباد « أبناء الله » بالمعنى الذى تعنيه الرعاية
والعناية والخلق ؟ فالبر بهم ، والعمل لخيرهم ، إنما هو محبة لله فى
خلقه . فهو تقوى . وهو عبادة .

وأول ما يتبادر إلى الذهن أن الناس يعملون لجمع الثروة ،
أو لكسب الجاه ، أو الارتقاء فى المناصب ذات النفوذ والسلطان .
حتى أن من مفهوم العمل عند الكثيرين أنه مطية المضطر لكسب
معاشه . بل أن من الناس من ينفى حاجته إلى العمل . وقد أدركت
فى صباى وصدر شبابى من ينفون عن أنفسهم — فى أنفة شديدة —
أن لهم مهنة أو حرفة من أى نوع . وإنما هم « أعيان » أى من « ذوى
الأملاك » ، يأكلون من غلة التراث الذى خلفه لهم آباؤهم مخلصين
لراحة والتنعيم .

وفى الصين القديمة كانت علامة الرقى أن يطيل المرء أظافره
شبرا أو أكثر أو أقل ، علامة على أنه لم يستخدم منذ ولادته يديه

فى عمل شىء على الإطلاق ! فهو الطاعم الكاسى بيد غيره ، إمعانا
فى نوى شبهة العمل ، أو شبهة الحاجة إليه .

وقد أدركت فى بكرة العمر بالصعيد الأعلى ، عند بعض
العشائر ، من كانوا يمنعون أولادهم - لابنائهم فحسب ! - من
تعلم القراءة والكتابة والحساب . فما حاجة أبنائهم - أبناء الأكرمين !
الى شىء من هذا ، وهم يستخدمون الكتاب والحاسبين بأجر معلوم
وفى فضل الله سعة ! كأنما فضل الله على المرء منهم أنه « جمع مالا
وعديده » . أما العلم فليس فى نظرهم فضلا ، لأن المال أداة الجاه
والسوء ، أما العلم فكفى صاحبه وضاعة وقماعة - فى نظرهم - أنه
يبدل علمه لمن ينقد الأجر . فهو بعلمه خادم ، والجاهل - بماله -
سيد مخدوم !

وهذا المفهوم للعمل مفهوم دنى ، يدل على أن « الاستغلال »
عند هؤلاء أساس كل قيمة .

أما فى شريعة المحبة والإيثار ، فمقياس مكارم الأخلاق هو
الإقبال على الخدمة وإسداء الخير ...

وبهذا المقياس يكون أوجز معيار لاتساق مفهوم العمل مع
مكارم الأخلاق ، أن يكون عمل كل عامل « رسالة » يؤديها لخير
الناس ، وليس مهنة لاجتلاب الكسب والإثراء لنفسه فحسب .

فهذا يكون العمل ثمرة شجرة الحياة الطيبة .

ألا ترى إلى الشجرة ، تأخذ غذاءها من الأرض والجو :
فبدون هذا القسط الكافى من الغذاء تذوى وتموت . ولكنها لا تأخذ
منه ما يفوق حاجتها . وهى لا تأخذه إلا لى تكون أقدر على العطاء .
العطاء بظلها الظليل ، وزهرها اليانع ، وثمرها الشهى ؟ ..

هكذا إذن ينبغى أن يكون هم الإنسان الفاضل المجهول على المحبة
والإيثار : ينال من عمله ما يقيمه ويشد أزره ويمكنه من مواصلة
العمل ، الذى جعله « رسالة » حياته ، التى يجد فى إتقانها وإسداؤها
لخير الناس معنى وجوده وسر سعادته الروحية .

ولكم ملأنى الأسى وأنا أرى امهاتنا يلقن أولادهن منذ نعومة
أظفارهم :

« - جدوا واجتهدوا كى تنفعوا أنفسكم ويكثر مالكم بما تتقنونه
من علم وعمل ... »

فيستقر فى نفوسهم الغضة أن غاية الغايات إنما هى « نفع الذات »
لا نفع الناس . فتفتت فيهم منذ البداية روح الارتباط بالمجموع
البشرى ... قوميا كان أو إنسانيا .

ولذا رأيت من اقتضت ظروف حياتهم أن يكونوا معلمين
يتناسون ان المعلمين ورثة الأنبياء . وأنهم صناع العقول ، وبناءة
الأجيال . ولا يذكرون إلا أنها « حرفة » لاجتلاب رزق ضئيل
هزيل ، فيركبهم الشعور بالضالة والإحباط . ذلك انهم لم يلتفتوا

الى أن عملهم الجليل - بل كل عمل يتصل بالناس ! - إنما هو رسالة
جليلة ، وانه بهذا المعنى جهاد حسن في سبيل القربى الى الله ...
فأقرب القربى عند من يحبون الله ، هي « خدمة المحبة » الخالصة
المخلصة لكافة « أبناء الله » . لكافة إخوانهم في الله . للبشر كافة !

وإن قيمة هذا العمل أنه هذا « القربان » وهذه القربى إلى الله .
وليست قيمته فيما ينفع من أجر ...

وهكذا رأيت من كانوا خليقين بالاعتداد برسالة عملهم الجليل
رسالة العلم والتعليم - يزدرون عملهم ويضيقون به ، ويجسدون
أرباب الله ممن تنهال عليهم أموال السكارى وأهل المجون ، فيقتنون
الضياع والدور والقصور والمركبات الفارهة ! .

وعلى النقيض من هؤلاء من يعيشون المحبة ، فتتوجههم مكارم
الأخلاق بتاج لا نظير له . لأنه تاج الجدارة بصفة أمست نادرة بين
أهل الأرض : صفة الإنسانية الحقة .

فانت إنسان على خلق عظيم ، بمقدار إيثارك على نفسك ،
وتجردك من الأثرة .

ولمثل هذا فليعمل العاملون ! ...

أهم مراجع مكارم الأخلاق في المسيحية

١ - العهد القديم

٢ - الانجيل

٣ - كتابنا « على مائدة المسيح »

(نشر مكتبة غريب بالفجالة)

- ٣ -

وجاء الاسلام ...

تلك الجاهلية ..

لابد عند الحديث عن مجيء الاسلام ، في بيئة لم يبعث فيها من قبل رسول « من أنفسهم » ، أن ننظر في حال العرب أيام جاهليتهم ، لنذكر مقدار التحول أو النقلة من حال الى حال .



إنها حياة القبيلة ، التي تقوم في معظم الأحوال والمواضع على الرعى . وتقوم في قريش خاصة على تجارة القوافل ، ورحلة الشتاء والصيف ، وما يترتب عليها ويقترن بها من اختلاط بأمم الحضارة ، من روم ، وفرس . وبديانات أهل هذه الحضارة أو تلك ، وتناقل الأخبار والمشاهدات . وشيوع الميل إلى الترف بين الاثرياء ، وما يعنيه الترف في مثل تلك البيئة التي يكثر فيها الاتجار بالرقيق والحرير من شيوع التنعم والتلذذ وحياة المجون والاندفاع في غمار الشهوات .

فاذا تذكرنا أن أولئك العرب - في جملتهم - لم تكن لهم عقيدة سماوية ، أدركنا أن النوازع ينقصهم . وإذا تذكرنا أنه لم تكن لهم حكومة مركزية قوية تفرض قانونا كقوانين الروم أو الفرس ، أدركنا أن الرادع أيضا كان ينقصهم .

فما كان سائدا بينهم إنما هو العرف القبلي . وهذا العرف مختلف باختلاف حال كل قبيلة ، من قوة ومنعة أو من ضعف وهوان

شأن ، فالقوة هي مصدر الحقوق في مثل تلك البيئة . الحق فيها للاقوى
والويل فيها للضعيف المغلوب .

ومن عجب أن الدكتور طه حسين كان يتوقع الشيء الكثير من
« الحياة الدينية » لأولئك العرب الجاهليين ، وهم أهل وثنية . أى
أن لكل قبيلة آلهتها وصنمها فليس لدياناتهم رباط من الشريعة التي
تقوم على تحديد الحرام والحلال ، وتوعد الناس بحساب عسير .

ومعنى الحلال والحرام هنا وضع الضوابط لشهوات النفس
ونوازعها الذاتية الحيوية ، على أساس قاعدة موضوعية يسلم بها
المتدين .

ففي غياب العقائد من هذا النوع ، نجد الحبل على الغارب
لنوازع الناس الذاتية . فكل من استطاع شيئاً فعله ، لا يخشى عقاباً
إلهياً غيبياً . بل كل ما ينشأه ثأر الخصم أو حلفائه ، إن قدروا على
الثأر . أما من آمن شيئاً من ذلك فلا وازع له ولا رادع ، ولا راد
لغلوائه .

فمن البدهي إذن أن يكون تدين أهل تلك الوثنية مجموعة أعراف
قبلية . وأن يكون اعتزازهم بدينهم الوثني لونا من ألوان الاعتزاز
بالشرف القبلي وتقاليد القبيلة وتراثها ، وفرعاً من العصبية لها يدفعهم
إلى الحمية والدفاع عن الحوزة . لأن الدين هنا رمز « الحمى » الذي
يرون في العدوان عليه إهدارا لكرامتهم وذهاباً بشوكتهم .

دين لا شرع فيه . ولا بعث ولا معاد ولا حساب . فلا يمكن
لذلك أن يكون منبعاً للأخلاق أو قواعد السلوك الكلية .

وهذا « طه حسين » في كتابه الأدب الجاهلي يقول عنهم :

— كلا ! لم يكن القرشيون جهالا ولا أغبياء . ولا غلاظا
ولا أصحاب حياة خشنة جافية . وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء .
وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة .

وليست القضية هي جهلهم وغبائهم وغلظتهم وجفوة حياتهم
وخشونتها . بل القضية هنا قضية مناهج أخلاقهم . فلا يمكن أن يكون
دينهم مصدراً لمستوى خلقى . بل « العرف » أو « التقاليد » هي
مصدر ما كانوا عليه من أخلاق .

ونجد « طه حسين » بعد هذه العبارة ، يستدرك قائلاً :

— وهنا يجب أن نحتاط . فلم يكن العرب كلهم كذلك .
ولا يمثلهم القرآن كلهم كذلك . وإنما كانوا كغيرهم من الأمم
منقسمين إلى طبقتين : طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالثروة
والجاه والذكاء والعلم . وطبقة العامة الذين لا يكادون يكون لهم من
هذا كله حظ والقرآن يحدثنا عن جفوة الأعراب وغلظتهم
وإمعانهم في الكفر والنفاق ، وقلة حظهم من العاطفة الرقيقة التي
تحمل على الإيمان والتدين . أليس هو الذي يقول « الأعراب أشد
كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » ؟ أليس قد

شرع للنبي أن يتألف قلوب الأعراب بالمال ؟ بلى ! فالقرآن إذن يمثل الأمة العربية (يومئذ) على أنها كانت كغيرها من الأمم القديمة فيها الممتازون المستنيرون الذين كان النبي يجادلهم ويجاهدهم ، وفيها العامة الذين لم يكن لهم حظ في استنارة وامتيار ، والذين كانوا موضوع النزاع بين النبي وخصومه ، والذين كان يتألفهم النبي بالمال أحياناً .

ولسنا نختلف مع الدكتور طه حسين في شيء من هذا ، إلا أننا نختلفه فيما ذهب إليه من المبالغة في شأن حياتهم الدينية مستدلاً على ذلك بما كان بينهم وبين النبي من مجادلة عنيفة ، ثم ما كان منهم بعد ذلك من تشديد النكير عليه وتعذيب المستضعفين من أتباعه ، مما اضطرهم إلى الهجرة ، ثم ما اضطر إليه النبي من الهجرة من بعد ، وما اتصل بينهم وبينه من حروب .

فالذي نراه في أمر دينهم وذودهم عنه ، أنه ضرب من الاعتزاز بالقومية ، ومن الحمية ، فهذا هو « ما وجدنا عليه آباءنا من قبل » وليس معنى هذا تقديسهم لذلك الدين الوثني من حيث هو دين . فما كان ينظم لهم من حياتهم إلا ما يتفق وأهواءهم . ولا يحملهم على شيء مما يضاد هذه الأهواء أو يكبحها .

أجل كانت لديهم قواعد للسلوك ، ولكنها قواعد العرف والتقاليد الموروثة . وما أكثر ما كان في حياة الأقوياء من الجور .

وما أكثر ما كان في سلوكهم من التحلل . فالبغاء كان شيئاً مألوفاً
يقره العرف . بل إن العرف كان ينظم طرق نسبة أبناء البغايا إلى
هذا الرجل أو ذاك ممن يترددون على خيامهن التي ترفرف عليها
الرايات الحمراء ، علامة على مهنتهن التي تأبى عليهن رد كل من
يذهب إليهن

أجل كانت لأولئك العرب سجايا ، يتفاخرون بها . ففي شعر
الفخر إذن نجد صورة صادقة للقيم التي يتمدحون بها ، فهي عندهم
في المقام الأسنى ، الذي يعادل « مكارم الأخلاق » بالمعنى العرفي .
وأول ما نجده الزهو بالجبروت والتعالى ، علامة على أنهم أبناء
الأكرمين . فهذا — مثلاً — عمرو بن كلثوم يقول في معلقته :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا

ويشرب غيرنا كدرا وطينا !

ذلك أنه لا يجسر أحد أن يرد الماء قبلهم ، إقراراً لهم بالسيادة
والتقدم .

فالتجبر أو الجور خلق متعمد .. يلتمس له زهير بن أبي سلمى
الأسباب والمبررات ، حيث يقول :

.... ومن لا يظلم الناس يُظلم ...

والغزو للنهب والسلب آية الفتوة والمنعة ، وإفناء المال في

تفى مجالس الشراب آية العزة والرفاهية . والتهالك على إتيان النساء
مفخرة ...

أنصغى مثلاً إلى فتى مثل طرفة بنى العبد ؟ نجده إذن يقول فى
معلقته :

ألا أيهذا اللائمى أشهد الوغى
وأن أحضر اللذات : هل أنت مخلدى ؟

فان كنت لاتستطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدي !

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودى :

فهن سبق العاذلات بشربة
كفيت متى ما تعل بالماء تزبد

وكرى إذا نادى المضاف محنبا
كسيد الغضا نبيته المتورد

وتقصير يوم الدجن ، والدجن معجب ،
بيهكنة تحت الطراف المعمد ...

ولعل القارئ بحاجة إلى توضيح هذه الأبيات . فهى صورة
موجزة للقيم الكبرى أو الغايات الرئيسية فى حياة الفتى من الطبقة
المترفة المرفهة من عرب الجاهلية ...

إنه يقول لمن يلومه على ولوعه بالاشتراك في القتال كلما سنحت له فرصة لذلك . فان لم يكن خائضاً غمار الحرب ، فهو مدمن مجالس اللهو والحرر وما فيها من صنوف اللذات . يقول لهذا الذي يلومه : أتملك أن تخلدني في هذه الحياة الدنيا ؟

وهو سؤال معروف الجواب سلفا . أنه لا خلود في الدنيا . وعندئذ يرد على هذا اللائم بقوله : ما دمت لا تستطيع أن تدفع عني الموت الذي لا أعرف متى يجيء ، وهو لاشك آت ، فدعني أغتني فرصة الحياة قبل انقضائها لأنعم بخير ما فيها .

وما خير ما فيها ؟

إنه يجمله في ثلاثة أمور ، يقول أنه لولاها لما أسف على انقضاء أجله . فهي كل ما يأسى على الحياة بسببه :

وأول هذه الأمور الجمر الجيدة التي ترغى وتزبد متى صليت عليها الماء . وهذه علامة على أنها معتقة .

وثاني هذه الأمور حماية الضيف إذا استنجد به ، فيكر راكبا جواده الذي يشبه الذئب في خفته وسرعته وضاوة اقتحامه .

وثالثها قطع الوقت في اليوم الشاتي بمضاجعة أنثى كبيرة الأرداف ، تحت خيمته الفاخرة المصنوعة من الجلد ، والمرفوعة على أعمدة ، كي يرى صفحة السماء المكفهرة وهو بنجوة ورفاهة عيش ...

فالقيم الكبرى التي يغلبها ويغلب الحياة بسببها إنما هي الخمر ،
والنساء ، ونجدة المستجير اللاتذ بحماه . وفيما عدا هذا فأنما هي الحياة
الدنيا التي لا تفكير وراءها في بعث أو حساب ، أو خلود روح
أو خالق له شريعة ومنهاج ...

ولعل قائلًا يقول :

إن إغاثة الملهوف وحماية المستجير ، وخوض الحرب في
سبيل ذلك مكرمة وسجية جديرة بالإكبار . وكذلك كرم الضيافة
أو « القرى » كما كانوا يسمونه .

أليس الكرم وحماية الحمى وحرمة الجوار من أكبر ما يمدحون
به على السنة الشعراء .

ضربوا بمدرجة الطريق بيوتهم

لا يسألون عن السواد القادم ! ..

فالصحراء مكان لا عمران فيه مستقر ، والطعام فيه كثيراً
ما يشح في سنوات الجذب . والماء نادر الوجود إلا في آبار قليلة
تحيط بها المراعى . وفي مثل هذه البيئة يكون القرى مسألة كثيراً
ما تحسم الفرق بين الحياة والهلاك جوعاً وعطشاً .

وللأهمية القصوى لكرم الضيافة في هذه الظروف ، يكون
ذلك الكرم أمجد ما يوصف به العربي وينبه به ذكره . ولذا نجد
أقبح ما يوصف به العربي الشح ورفض إيواء الغريب وإطعامه :

قوم إذا استنجد الأضياف كلهمو
قالوا لأهممو : بولى على النار !

كما قال الخطيئة . فتذهب هذه النقيصة سبة الدهر ...

فالكرم هنا ضرورة حياة . وما من شك أنه من مكارم
الأخلاق . فكثيراً ما يكون الكرم في تلك البادية علامة على إيثار
ليس بعده إيثار . وإن من أجواد العرب من كانت السنة الجلباء
قد أتت على ماله ، من غنم وإبل ، حتى لم يتبق له إلا شاة واحدة ،
يقيم لبنها أوده وأود امرأته . فينزل به الضيف ، فينحر شاته الوحيدة
ويبيت على النار يشوى له لحمها ويطعمه إياه ، ولا يكاد يصيب
منه شيئاً .

إيثار ما بعده إيثار . لا يرجو عليه ثواباً ، وهو الذى لا يؤمن
ببعث ولا آخرة ولا حساب . ولكنها علامة الكرامة التى توارثها
العرف .

ومن هذا القبيل أيضاً حماية الحمى ، وحفظ الجوار ، والوفاء
بالوعد . فهذه كلها سجايا نبيلة ، ومردّها إلى الأنفة والكبرياء
والاعتداد بالنفس.... وهى صورة عرف يتوارثه الأكابر وذوو
المكانة جيلاً بعد جيل .

وهذا دليل على أن تلك الحياة الجاهلية التى كانت قائمة على
طلب اللذة ، وعلى الكبرياء ، والاعتقاد أن لا بعث ولا حساب

ولا خالق ... لم تكن تخلو من قواعد للسلوك . وهى قواعد التقاليد والعرف الموروث .

وهو دليل أيضاً على أن تلك الحياة الحسية لم تكن تقاليد السادة فيها تخلو من سجايا كريمة تقوم على الأنفة وتدل على الإيثار بلا مرء ولكن الجور أيضاً كان هو الغالب عليهم .

ويعى التاريخ ، قبل بعثة النبي العربى ، ما يسمى « حلف الفضول » .

يقول الدكتور هيكل فى كتابه القيم « حياة محمد » :

« شعرت قريش بعد حرب الفجار أن ما أصابها وما أصاب مكة جميعاً بعد موت هاشم وموت عبدالمطلب من تفرق الكلمة وحرص كل فريق على أن يكون صاحب الأمر ، قد أطمع فيها العرب بعد أن كانت أمتنع من أن يطمع فيها طامع . اذ ذاك دعا الزبير بن عبدالمطلب ، فاجتمعت بنو هاشم ، وزهرة ، وتيم ، فى دار عبدالله بن جدعان ، فصنع لهم طعاما ، فتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن مع المظلوم حتى يودى إليه حقه ما بل بجر صوفة . وقد حضر محمد هذا الحلف الذى سماه العرب حلف الفضول وكان يقول :

— وما أحب أن يكون لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم . ولو دعيت به لأجبت » .

وواضح أن هذا الحلف لم يشترك فيه كل بطون قريش ..
وواضح أيضاً أنه دليل على استفاضة الظلم والجور والعدوان من
الأقوياء على الضعفاء . فكأن هذا الحلف واحة نجدة ونخوة وعدل .
وسط صحراء مترامية من الضراوة الرعناء .



عدوان وجور ، مصدرهما الافتتان بالقوة الذاتية . ومكارم
أخلاق مصدرها — حين توجد — الاعتداد بالكرامة الشخصية أو
القبلية .

أما المبادئ الكلية ، التي يدين بها الكافة ، فلم يكن لها مكان
في ذلك المجتمع القبلي الذي لا يعلو فيه شيء فوق سلطان العرف ..
ولا إيمان فيه وراء الحس وحياة الحس

وهكذا كان الحال حتى ظهر الإسلام .



عقيدة وشريعة ..

من المسلم به عند كل من يدين بالإسلام ، أن نبي الاسلام إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، طبقاً للحديث المشهور . ولكن مكارم الأخلاق — كما رأينا — « بناء فوقى » لا يقوم من غير أساس من « محاسن الأخلاق » ، التى هى مستوى العدل ، أو الكيل بمكيال واحد موضوعى لا ذاتية فيه .

ولقد كانت الجاهلية أعرافاً تختلف باختلاف القبائل . وما يكال به بين أبناء القبيلة الواحدة لا يكال به لمن هو غريب عنها . وما يكال به للحر لا يكال به للعبد . وما يكال به للعربى غير الذى يكال به لغير العربى من الأعاجم أو الأحابيش أو غيرهم .. وما يكال به للقوى غير الذى يكال به للضعيف .

فكان أول تمهيد للأرض ، كى يقوم أساس كل خلق قويم ، هو نقض أخلاق الأعراف والتقاليد والعنجهية ، وإلغاء سلطاتها ، ليكون هناك سلطان واحد لإقامة الحدود والعلاقات بين الناس كافة : أبيضهم وأسودهم وأحمرهم ، بقانون واحد يكون الجميع أمامه سواسية كأسنان المشط .

وكان هذا السلطان الأعلى هو « شريعة الله » .

فلم يكن لسواد العرب فى الجاهلية عهد بشريعة علوية تقيم حدود التعامل بالعدل ، وتمنع الجور والعدوان ، وترسى — لأول

مرة في تاريخ العرب - تلك المساواة بين المؤمنين كافة . فتلغى الطبقات وفوارقها أمام هذا الشرع الكلى الموضوعى . فلا يكون فضل لقرشى على أعجمى إلا بالتقوى .

وكانت هذه بداية التحول الهائل من أخلاق الجاهلية إلى أخلاق الإسلام .

وسند هذه المساواة التي تهدم ما توارثه العرف ، ليس عرفاً جديداً أو فرضاً عملياً أو قسرياً . بل هو سند مستمد من مصدر أعلى من المصادر البشرية كافة . هو مصدر « الإيمان بالله الواحد » .

فهذا الإيمان يثبت في النفوس والعقول نظرة جديدة تماماً ، تتجاوز النظرة « الحسية » الواقعية ، وتلغى ما كان سائداً من أن الحياة الدنيا هي كل شيء ، وإن الموت ختامها الأخير .

فالإسلام دعا هؤلاء الجاهليين إلى معرفة صلة جديدة بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس ما بينه وبين خالقه . وبموجب عقيدة الخلق الإلهي يرسخ الإيمان بأنهم كلهم لآدم . لأب واحد . فلا شرعية إذن للتفاخر بالانساب والآباء . مادام الأصل في النهاية واحداً . بل ردهم أيضاً إلى ما وراء هذا . فعرفوا أنهم جميعاً لآدم وآدم من تراب . تمكينا في الأذهان لعقيدة الخلق . وتأكيذا لسلطان الربوبية المطلق ، وما يترتب عليه من الإقرار بالعبودية للخالق ووجوب طاعته في كل شيء .

وعلى أساس من هذه الطاعة ، يقوم أساس الإيمان بالبعث ،
فالذى خلقهم أول مرة ولم يكونوا شيئاً ، قادر أن يجمع عظامهم
بعد أن كانت رميما ، ويثبت فيها الحياة ، ويستأدى من كل واحد
منهم حساباً عما فعله ، من التزام بطاعة الله أو مروق عنها .

— أيجب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ بل قادرين على أن
نسوى بنانه ! بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل أيا ن يوم القيامة
فاذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول
الإنسان يومئذ « أين المفر » ؟ كلا لاوزر ! إلى ربك يومئذ المستقر
ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الإنسان على نفسه بصيرة .
ولو ألقى معاذيره .

(سورة القيامة : ٣-١٥)

بل فى هذه السورة بعينها يقول القرآن الكريم بعد بضع آيات
على سبيل تأكيد قدرة الله على البعث ، تأسيساً على تفردّه بمعجزة
الخلق ابتداء :

— أيجب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى
يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر
والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟

(سورة القيامة : ٣٦-٤٠)

بطل إذن قولهم واعتقادهم : إنما هى الحياة الدنيا ، ثم لا شيء

بعد هذا أبدا . بطل إذن اعتقادهم أنه ليس لحياتهم معنى باق وراء واقعها الحسى ، وما يتيح من لذة ولعب وهو وتجبر .

وهذا الإيمان بالخالق والبعث والحساب هو حجر الزاوية فى بناء الدين الجديد . ولذا فلا عجب أن يكون مجال النضال والمجاهدة والمجادلة ، بين الجاهليين والعقيدة الجديدة ، بما تدخله من تغيير كلى على نظرهم إلى الحياة وإلى أنفسهم .

وحاجهم القرآن فى ذلك بالاستناد إلى آيات الله فى الخلق وقدرته عليه سبحانه :

— ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ! ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون !

(المؤمنون : ١٢-١٦)

وذكرهم بعد ذلك بوضع آيات بما كان من أمثالهم مع نبي الله قوح ، وأنهم صنعوا مثل صنيعهم وكذبوا بآيات الله مثل تكذيبهم هذا ، وكانوا فى غفلة كغفلتهم واغترارهم بالحياة الحسية ، وأنها كل شئ ، ولا شئ وراءها ، فأهلكهم الله ، ثم ..

— ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، فأرسلنا فيهم رسولا منهم
أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ ! وقال الملائ من
قومه الذين كفروا وكذبوا بقاء الآخرة ، وأترفناهم في الحياة
الدنيا : ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما
تشربون . ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن لخاسرون !
(المؤمنون : ٣١-٣٤)

ثم تتلو ذلك حجة الكافرين بالله على توالى العصور :

— أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ؟ هيهات
هيهات لما توعدون ! إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن
بمبعوثين ! إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا ، وما نحن له
بمؤمنين !

(المؤمنون : ٣٥ / ٣٨)

فهذا قولهم الذى يصرون عليه كلما دعوا إلى الإيمان بالله الخالق
المحيى المميت ، الذى إياه الحشر وبين يديه الحساب :

— وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا
إلا الدهر ! ...

(الجاثية : ٢٤)

فهذه القضية إذن هي مفرق الطرق بين الكفر والإيمان ، أو بين حياة الجاهلية وحياة الإسلام .

وعلى أساس التسليم بوحداية الخالق المحاسب على الطاعة والمعصية تقوم شريعة الحياة الإسلامية التي تضع الحدود بين الحرام والحلال ، فالحلال بها بين والحرام بين . وهذه هي القاعدة الموضوعية الكلية ، أو المكيال الواحد الذي يعنو له الكافة ، وهم أمامه سواسية بلا استثناء .

وعلى هذه الأرض الصلبة يقوم أساس الأخلاق الإسلامية :



من الجور إلى العدل

كانت الجاهلية احتكاما إلى القوة والجبروت . ولذا شاع فيها
العدوان

فبدأ الإسلام بحماية النفس والعرض والمال . وذلك ما يقابل
وصايا الناموس : لا تقتل ، لا تزن . لا تسرق ...

ورتب القصاص العادل على كل جنائية من هذه الجنايات ..
وهنا مرة أخرى نجد شريعة « عين بعين وسن بسن » ، التي تبين
حدود العلاقة بين الناس عندما يقع عدوان على أحد منهم . فهذا ما
يعنينا في مبحث الاخلاق ، أما محرمات الطعام والشراب وما الى
ذلك ، فهي من أمور الدين الخارجة عن نطاق العلاقة بين الناس
بعضهم وبعض ، لأنها أمور تخص علاقة المرء بربه .

وتشير سورة المائدة إلى ما جاء بالتوراة في هذا الشأن :

— وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف
بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن والجروح قصاص .
(المائدة : ٤٥)

ويردف ذلك بقوله :

— ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . ثم في الآية
٤٨ يقول :

— فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق :
ثم في الآية ٥٠ :

— أفحكم الجاهلية يبغون ؟

وما كان حكم الجاهلية إلا البغى والجور والعدوان . لم تكن
العين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن . بل كان
جزاء من اعتدى قليلا أن يرد عليه عدوانا بغير حدود ، تشفيا وإمعانا
بني الانتقام ، إن كان الموتور قادرا . إما إن كان الموتور ضعيفا ،
فإن دمه يذهب هدرًا لأن الحكم ليس لله ، بقاعدة كلية موضوعية ،
يل الحكم للقوة والبغى والجبروت .

فشرية النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن هي العتبة
التي يلج الناس منها ملكوت العدل بعد ملكوت الجور .

وهو عدل يسوى بين الجميع ، لأنه ليس مستمدا من عرف
العشيرة المحدودة ، ولا من قانون القوة الغاشمة . بل من حكم الله
الذي يستوى في ميزانه جميع خلقه . .

ويعى التاريخ يوم أسلم أحد ملوك الغساسنة ، وهو جبلة بن
الأيهم ... في خلافة عمر بن الخطاب . وفيما هو يطوف بالبيت
داس أعرابي على أزاره فحله ، فضربه جبلة فأدمى أنفه . وذهب

الأعرابي يشكوه إلى عمر . فدعا عمر جبلة ، وسأله فأقر إقرارا من لا يرى أنه اجترح شيئا غير طبيعي . فقال له عمر .

— يقتص منك الأعرابي ، ضربة بضربة !

فذهل جبلة وقال له :

— كيف هذا ؟ أنا ملك وهو سوقة !

فكان رد عمر :

— ولكن الإسلام سوى بينكما !

ويعى التاريخ كذلك ما كان من أمر ابن فاتح مصر عمرو بن العاص ، حين تسابق فرسه وفرس ابن أحد أقباطها ، فسبق فرس القبطي فرس ابن عمرو ، فضربه ابن عمرو وهو يقول قولة جاهلية :
— نخذها وأنا ابن الأكرمين !

فذهب والد ذلك الشاب مع ابنته إلى المدينة ليشكو ذلك الظلم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فدعا أمير المؤمنين بعمرو وولده ثم أعطى درته (عصاه الغليظة) لابن القبطي ، كي يضرب بها ابن فاتح مصر كما ضربه . فاقتص المضروب من الضارب .

ولم يكتف عمر بن الخطاب بهذا ، فقال للمضروب :

— أجلها كذلك على ضلعة عمرو . فما استطال الابن عليك إلا

بسلطان أبيه !

ولكن الولد وأباه قالا :

— لا نفعل . فقد اقتصبنا من الضارب !

وهذه الواقعة شاهد عملي على أن حكم الشرع يسوى بين الناس في القصاص . فلا ملك ولا سوقة ، ولا حاكم ولا محكوم ، ولا مسلم ولا ذمي . الكل أمام الشريعة الموضوعية الكلية سواسية كأسنان المشط !

— والحرمان قصاص ! فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله . واعلموا أن الله مع المتقين .
(البقرة : ١٩٤)

لحرمان قصاص . فمن اعتدى على حرمة أحد ، فليكن لاقتصاص منه بمثل ما اعتدى به . والمسئولية في هذا شخصية . فلا يجوز أن يكون الاقتصاص كثار الجاهلية ، يناله المعتدى عليه من أي فرد من أفراد عشيرة المعتدى أو قبيلته . كلا . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه هو شخصيا ...

وعلى خلاف ثار الجاهلية أيضا ، لا يجوز أن يتجاوز رد العدوان للاقتصاص من المعتدى حدود مثل ما اعتدى به أولا ، كأنما العدوان نوع من الربا . فلا تزيد ..

وفيفيد تتابع نص هذه الآفة ، أن التزفد فى القصاص من المعتدى ،
أى تجاوز رد العدوان بمثله ، وعلى شخص المعتدى دون سواه —
نقىض التقوى . فالتقوى تلزم الناس إذن ألا يتجاوزوا فى رد العدوان
شخص المعتدى وبمثل ما كان منه حفن اعتدى .

بل وفى شرفة القتال ، أى الحرب ، لا يجوز إلا قتال من
قاتلوكم ، أى الذين تصدوا لكم محاربفن باءفن بالحرب ، على أن
فكون هذا القتال فى سبفل الله .

— وقاتلوا فى سبفل الله الذين فقاتلونكم ، ولا تعتدوا ! إن
الله لا فحب المعتفن .

(البقرة ١٨٠)

أما الذين لم فقاتلوكم ولم فبادروا بالعدوان :

— عسى الله أن ففعل بفنكم وففن الذين عاففم منهم مودة !
والله قافر . والله عفور رحفم .

(الممتحنة ٧)

وأكثر من هذا :

— لا فنهاكم الله عن الذين لم فقاتلوكم فى الدين ، ولم فخرجوكم
من دفاركم أن تبروهم وتقسطوا إلفهم . إن الله فحب المقسطفن .

(الممتحنة ٨)

وهل وراء حب الله شيء ؟ ذلك غاية الغايات في التحريض على هذا البر ، وهذا القسط ... لأنه عدل أبعد ما يكون عن العدوان . والعدوان أبغض ما يندد به القرآن وينهى عنه . وكل عدوان أباحه إنما هو في حقيقته « قصاص » أو « رد عدوان » . أما تجاوز العدل في رد العدوان فخرج عن التقوى . « إن الله لا يحب المعتدين » .

فحب الله المقسطين العادلين في جانب . وبغضه المعتدين في الجانب الآخر . وليس وراء هذا توضيح للسنن القويم والمنهاج المستقيم .

وفي القرآن الكريم تحذير من الانسياق مع شعور العدا والكرامية انسياقا يورط في العدوان على أولئك الأعداء — إلا أن تكون حرب .

في سورة المائدة ، الآية الثانية تقول :

— .. ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا .

— وتعاونوا على البر والتقوى . ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب .

فالآية تربط التورط في هذا العدوان بدافع الشنآن أو التعاون

على العدوان ، بأنه خروج على تقوى الله : وتتوعد المعتدين في هذه الحالة بأن الله شديد العقاب .



فالعدوان جور ، وهو نقيض العدل . وليس أقبح من الجور والظلم — وكانا من أخلاق الجاهلية — فعتبة الخلق القويم في الإسلام ذلك التحول من بغى الجاهلية وظلمها وعدوانها إلى العدل الذي يرتبط بتقوى الله . أى شرعه الموضوعى الكلى الذى هو حق للكافة على الكافة بلا تفرقة . وليس العدل في هذه الحالة تكرما يصدر عن اعتداد العادل المنصف المقسط بنفسه . إنما هي حدود الله الآن ، وليست تفضلا من أحد على أحد ، كما كان يحدث من ذوى الخلق الحميد في الجاهلية ، اعتدادا بمكانتهم وفضلهم .

ولكن الإنصاف الموضوعى يقتضى منا ها هنا أن نلتفت إلى عنصر آخر ، قد يرتبط بهذا العدل ، الذى هو حق الله وقانونه الكلى .

وهذا العنصر هو « الانتصار على النفس » . أو قهر الذات والذاتية حين يكون الإذعان لعدل الله مضادا لنزعة بشرية قوية . فيكون قهر هذه النزعة العنيفة تقربا إلى الله ومحل ثواب ، ويكون في الوقت نفسه مرتبة تعلو فوق الخلق القويم السوى ، وتلامس نطاق « مكارم الأخلاق » لما في ذلك من « الإيثار » على نحو ما ..

— ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا ، هو أقرب للتقوى . واتقوا الله . إن الله خبير بما تعملون .

(المائدة ٨)

فالتغلب على النفور أو الكراهية — التي قد يكون لها مبررها الطبيعي — كي تعطى من تكره حقه المادى أو المعنوى ، مثل إيفائه ما يستحق من الشهادة له بسجية حسنة ، مسألة ليست سهلة على النفس البشرية ، ما لم تكن مطبوعة على تقديس الحق والعدل . وهما فى الاسلام — كما فى غيره من الشرائع السماوية — مطلوبان من المؤمن ، مهما كلفه ذلك من مجاهدة شعوره الدانى .

ومما أذكره فى هذا المقام ، ما كان من لقاء بين عمر بن الخطاب والرجل الذى كان قد قتل أخاه ، قبل أن يدخل هذا القاتل فى الاسلام . فلما أسلم « جب الإسلام ما قبله » أى ألغاه . وصارت دماء الجاهلية — على حد تعبير النبى — موضوعة . أى لا قصاص فيها .

عندئذ قال عمر لقاتل أخيه — وله فى ذلك كل العذر :

— لن أحبك حتى تحب الأرض الدماء !

ومعروف أن التراب لا يشرب الدم ، لأنه يتجلط على سطحه . فأجابه ذلك الرجل :

— أمانى ذلك حقا يكون لى .. ؟

فقال أمير المؤمنين على الفور :

— لا !

قالها سريعة قاطعة ، كأنه يبرأ إلى الله من ذلك . فقال الرجل :

— إذن لا يأسى على الحب غير النساء !

وهو رد أحسب ذلك الرجل قاله إما عن غلاظة طبع وجفوة
سجية ، وإما على سبيل المغايظة وإظهار عدم المبالاة .

فمراد عمر ، أن الشنثان لا يمنع العدل ، وأن يأخذ من يكرهه
حقه كاملاً . وتلك مجاهدة للذاتية لاشك فيها ، أقول أنها تكاد
« تلامس » مستوى مكارم الأخلاق القائم على الإيثار .

أجل ها هنا إيثار . ولكنه ليس الإيثار بالنزول عن شيء من
حق المؤثر على نفسه . كلا ! فالعدل حق الله وليس حق عمر أو
غير عمر ، وهو حين يوفى عدوه حقه ، لا يتنازل عن شيء مما لعمر
بل ياتمر بأمر الله ، مع احتفاظه بمشاعره الخاصة ، التي هي من
شأنه ومن حقه .

فلو كان من حق عمر أن يثار من قاتل أخيه ، وآثره على
نفسه ، فتنازل عن الاقتصاص منه وهو ولي الدم ، لكان ذلك
إيثاراً صحيحاً ، وعملاً يدل على مكارم الأخلاق بلا مرأى ...

ولست أعنى — بالطبع — أن عمر ليس له رصيد ضخم في

مواقف كثيرة من مكارم الأخلاق ، بل أعنى أن هذه الواقعة التي اتخذتها مثلاً لمجاهدة الذات إذعانا للقاعدة الكلية الموضوعية ، قاعدة العدل ، التي هي أساس محاسن الأخلاق في شريعة الإسلام ، إنما هي دليل على قمة من قمم مجاهدة الذاتية ، تقارب وتماس مكارم الأخلاق . ولكنها لا تنطوي على النزول طوعية أو تطوعاً عن حق من حقوق عمر . بل إن عمر احتفظ بحقه في الشنثان أو الكراهية كاملاً ، وكل ما هناك أنه حرص على ألا يعوق هذا أداء حق عدوه الذي شرعه له الله كاملاً .

وهذا التطوع بالنزول عن حق شخصي إيثارا للآخرين ، هو شرط مكارم الأخلاق بمعنى الكلمة .



والخصومة في الأمور الشخصية ليست المدعاة الوحيدة للشنثان أو العداوة . بل كثيراً ما تكون الخصومة أو الخلاف حول المسائل العامة — ومنها المسائل المتعلقة بالعقيدة — مثار انفعالات لا تؤمن بواجدها .

ألسنا نرى الهندوس وهم يقدسون الحياة في كل كائن حي ، حتى الحشرات ، ومن باب أولى البقرة ، برأبها ، ووفاء لما تبذله للناس من لبنها ..؟ ولكن الهنود المسلمين يذبحون البقر ويأكلون

لحمه . ولذا يحتدم الغضب والخصام ، وإذا بمن يقدسون حياة الحيوان ، يقتلون الآدميين اندفاعاً مع لدد الخصومة .

وتحذيراً من مثل هذا الاندفاع الذي يجر إلى الشحناء مع المخالفين في العقيدة ، نجد القرآن الكريم يقول :

— ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن .
(العنكبوت ٤٦)

والدعوة إلى الإيمان بالعقيدة مطلوبة ، ولكن « لا إكراه في الدين » . وهذا بدهى . فالإيمان لا يكون قسراً ، بل لا يكون إلا عن اقتناع وتسليم بالباطن قبل الظاهر .

— .. فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر !
(الكهف ٢٩)

— ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .
(المائدة ٤٨)

— ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً .
(يونس ٩٩)

— ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .
(هود ١١٨)

— إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً .

(المزمّل ١٩)

— ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة .

(النحل ١٢٥)

والسيرة حافلة بسماحة النبي العربي مع أهل الكتاب ، ففي اليمن مثلاً كان يعيش كثيرون من المسيحيين واليهود ، فكتب إلى عامله على اليمن .

— من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتن عنها .

وهو القائل في حديثه الثابت بالسند الصحيح :

— من آذى ذمياً فقد آذاني .

وفي رواية أخرى :

— من آذى ذمياً فأنا خصمه . ومن كنت خصمه خصمته يوم

القيامة !

وهو أيضاً الذي تروى السيرة عنه ، أنه كان يجلس مع صحابته عندما مرت به جنازة يهودي ، فوقف لمرورها .

وعجب بعض صحابته وقال :

— إنه يهودي يا رسول الله ...

فقال له :

— سبحان الله ! أليست نفساً ؟ !

وإذا رجعنا إلى العهد الذي كتبه لنصارى نجران وجدنا فيه :

— ولنجران وحسبها جوار الله وذمة محمد النبي على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبعهم وألا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من أسقفية ولا راهب من رهبانته ولا وقعة من وقعته ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . وليس عليهم رية ولا دم جاهلية ، ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يبطأ أرضهم جيش . ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر ، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ، حتى يأتي الله أمره ، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم . شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف ، والأقرع بن حابس الخنظلي ، والمغيرة بن شعبة وكتب .

ومن سماحته أيضاً أنهم اجتمعوا به في المسجد ، فلما كان المساء وحان وقت صلاتهم ، نهضوا إليها في المسجد واتجهوا إلى الشرق وتلوا صلاتهم . ولما حاول بعض الصحابة منعهم ، قال لهم النبي دعوهم وصلاتهم .

ويعلق صاحب « زاد المعاد » ، الإمام ابن قيم الجوزية ، على ذلك ، بأنه يستفاد من هذا فقه :

— ففيها جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين . وفيها تمكن أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين وفي مساجدهم أيضاً إذا كان ذلك عارضا ولا يمكنوا من اعتياد ذلك . وفيها أن إقرار الكاهن الكتابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه نبي لا يدخله في الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته . فاذا تمسك بدينه يعد هذا الإقرار لا يكون ردة منه ...

(زاد المعاد الجزء الثالث ص ٤٢)

ولو أنسقنا وراء شواهد سماحة الاسلام مع أهل الكتاب ، وما بقي ذلك من نهى عن مجادلهم الا بالتي هي أحسن ، وحفظ حقوق أهل الذمة في دينهم وأنفسهم وأموالهم كاملة لأحتجنا في ذلك إلى المجلدات الطوال . وفيما ذكرناه الكفاية لكل لبيب .

ومكارم الأخلاق ...

يحسن بنا أن نتنبه منذ الآن إلى أن السلوك البشرى فى الإسلام
يتسم بالتوافقية ، لا بالاستقطابية . أى أنه يقوم على التوافق بين
مطالب الجسد ومطالب الروح . بين الدنيا وبين الدين .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمَلْ لآخرتك كأنك
تموت غداً » و « لاتنس نصيبك من الدنيا » .

وبذلك تبدو « النقلة » من حياة الجاهلية الحسية الخالصة ، إلى
حياة الإسلام خالية من التناقض الذى يكون بين ضدين لا التقاء
بينهما .

وها هنا أيضاً موضع للتنبيه إلى أهمية تفاوت الناس للاستعداد
الروحى ، أى الاستعداد لتجاوز الذاتية وقهرها ، ذلك التغلب الذى
لا قيام بدونه لمكارم الأخلاق — وهى أخلاق الإيثار فى مقابل
أخلاق الأثرة والأنانية .

فلكل نفس فى هذا المنحى طاقة محدودة ، و « كل ميسر لما
خلق له .. » ، « ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها » و « الدين يسر
لا عسر ، فأوغلوا فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا
أبقى ! » .

وأخلاق الإيثار — أى النزول طواعية عن الحقوق رحمة بالغير
ومحبة له وبراً به — هى قوام مكارم الأخلاق . أى الأخلاق القائمة

على الكرم والجود بما هو حق صريح للبازل والمتنازل ... وهى الأخلاق التى رأينا المسيحية تطالب بها مطالبة « فرض » و « تحتيم » وهى هى بعينها فى الإسلام ، إلا أنه يطلبها « تطوعا » ويخص عليها كل قادر على مشاقها . ويربط بها مراتب الفضل والثوبة والرضوان .

فحين تأخذ حقتك بلا زيادة ، ولاتقبل منه انتقاصا ، فأنت عند حد العدل ، الذى هو مستوى الخلق القويم . وحين تؤدى الزكاة وما إليها من فروض الله ، فأنت مسلم قائم بما هو « مفروض » عليك لا فكاك لك منه ، ولا يجوز لك التحايل أو التملص ، لأنه حق الله عندك ، يجب عليك أن تؤديه إليه .

أما حين تنزل عن شئ من حقتك تطوعا وسماحة ، وبراً أو رحمة أو محبة ، فأنت على خلق كريم ، ولست على خلق قويم فحسب .

فهناك صدقة « التطوع » ، التى تدفعك إلى بذلها مشاعر الأخوة لأخيك المحتاج .

بل إن الرحمة بالحيوان الأعجم رقة قلب تجعل لك مكاناً ومنزلة بين الأفاضل ممن هم على « خلق كريم » .

فمراتب الفضل رهن بما تدفعه إليك رقة قلبك من الإيثار على نفسك . لا تملقاً ، ولا طلباً لمنفعة أو قضاء شهوة ، بل بدافع المحبة أو الرحمة المنزهة عن الأغراض الشخصية .

وكأما كان عملك قهرا لذاتيتك ، وإمعانا في الإيثار ، كان ذلك أدل على مكانة أرفع بين مراتب الخلق الكريم ، لأنه أدل على « البر » ، الذي هو ثمرة الإيمان الحقيقي .

— ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . وآتى المال ، على حبه ، ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين ، وفي الرقاب

(البقرة ١٧٧)

وهكذا يكون بذل المال — على حبه — إثارا كريما ثمره شجرة « البر » التي أتت هذه الآية على وصفها . ومعروف أن البشر — أو معظمهم — « يحبون المال حبا جما » فبذله في هذا السبيل رحمة وانتصار على الذاتية لاشك فيه .

وينطبق هذا على بذل كل ما يحبه الإنسان ويشتهي لنفسه ، ولو أثر به نفسه لما كان ظالما ولا معتديا .. كأطياب الطعام مثلا : —

— ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا .

إنما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ...

(الانسان ٨ و ٩)

عن رقة قلب ورحمة ، وقربى إلى الله ، لاطلبا لقضاء حاجة مثلا يهدى الكثيرون أطياب الثمار لذوى الحول والطول والسلطان ..

— ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

(الحشر ٩)

أليس الإيثار مع الخصاصة — أى الفاقة والضيق — ، وبرغمها هو غاية الإيثار ؟ أليس هذا من أكبر أبواب « الجهاد الأكبر » ، جهاد النفس ؟

وهذا كله من مكارم الأخلاق ، لأنه إيثار على الذات في الماديات . ولكن هناك إيثارا آخر في المعنويات ، وفي الحقوق ، وفيما يتصل بالمشاعر البشرية من غيظ وغضب للكرامة :

— وجزاء سيئة سيئة مثلها ! فمن عفا وأصلح فأجره على الله !
(الشورى ٤٠)

أليس القصاص من حق من اعتدى عليه ، شريطة ألا يزيد على مثل ما اعتدى به عليه ؟ هذا حقه . ولكن مكارم الأخلاق في ترك هذا الحق والنزول عنه طوعا ، لا رهبة ، فيكون أجره عند الله عظيما ... وهذا عين الحث على الصفح والمغفرة .

وهذا ما تشير إليه سورة البقرة ٢٣٧ :

— وأن تعفوا أقرب للتقوى . ولا تنسوا الفضل بينكم
وهكذا يربط النص بين « الفضل » و « العفو » .

— إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء ، فإن الله كان عفوا قديرا .

(النساء ١٤٩)

— وأن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم .

(التغابن ١٤)

وهذا كله حث على العفو والصفح والمغفرة ، تقربا إلى الله الذى من صفاته جل جلاله أنه غفور رحيم .

ولعله ليست هناك عبارات أجمع لمكارم الأخلاق ، من الآيتين ١٣٣ و ١٣٤ من سورة آل عمران :

— وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .. (١٣٣)

ومن هم هؤلاء المتقون ؟ هم :

— الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين ! (١٣٤)

فأولى درجات مكارم الأخلاق هذا البذل للمال وعرض الدنيا . ثم تأتى درجة من يساء اليهم فيغتazon ، ولكنهم لا يردون الإساءة بل يكظمون غيظهم ، نازلين عن حقهم فى رد السيئة بسيئة مثلها .

وفوق هذه درجة من يعفو فلا يحمل في نفسه غيظا ولا إحنة .
وفوق الجميع من يقابل السيئة بالاحسان ، والله يحب المحسنين !
إنى لأحس لهذه الآية نظير إحساسى بقول المسيح فى موعظة
الجبلى :

— أحسنوا إلى من يسيئون إنيكم . فإن أحسنتم لمن يحسنون إليكم
فقط ، فأى فضل لكم ؟

وفى هذا من الانتصار على الذاتية ، ومن الإيثار والسماحة التى
تدل على « الكرم » الأصيل ما فيه .

ولست أجد مثلاً للتسامح فى أمس ما يجرح كرامة الرجل
الكريم من تسامح أبى بكر ورده إساءة من خاض فى سمعة ابنته
عائشة بالإحسان إليه . على هول ما كان من ملابسات « حديث
الإفك المشهور » !

وكان مسطح بن أثاثه (ابن خالة أبى بكر) ممن أفصحوا
بالفاحشة . فلما أنزلت براءة عائشة ، قال أبو بكر — وله كل الحق
وكل العذر :

— والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً ، ولا أنفعه بنفع أبداً بعد
الذى قاله لعائشة وأدخل علينا (من الغم) .

وكان ينفق على مسطح لقرابته وحاجته وفقره . فلما نزلت
الآية ٢٢ من سورة « النور » :

— ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى
والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصْفحوا ، ألا
تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم ؟
قال أبو بكر :

— بلى والله ! إنى لأحب أن يغفر الله لى !

فرجع إلى مسطح نفقته التى كان ينفق .. . قال :
— والله لا أنزعها منه أبدا ...

أليس الحُض على المغفرة هنا هو بعينه ما يذكره المسيحيون فى
صلاتهم :

— رب اغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن للمذنبين إلينا ؟

أليس هذا دليلا أكبر الدليل على أن مكارم الأخلاق والبر فى
المسيحية والإسلام صنوان ، بل هما شىء واحد ؟

أكبر ظنى أنه شىء واحد . وأنه ثمرة الشجرة الطيبة التى تثبتها
بذرة الإيمان بالله الغفور الرحيم المنعم المبدع التواب ... يستوى فى
ذلك هذا الدين وذاك الدين .. فهاهنا نقطة التقاء بين المسيحية والإسلام
وسلام على الصادقين

دكتور نظمى لوقا

مصر الجديدة

٧ يناير سنة ١٩٨١

أهم مراجع مكارم الأخلاق في الاسلام

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - صحيح البخارى .
- ٣ - سيرة ابن هشام
- ٤ - زاد المعاد .
- ٥ - كتابنا أبوبكر حواري محمد - نشر مكتبة غريب

كتب للدكتور نظمي لوقا

- الله في نظر الناس وكما أراه (فلسفة)
- المغتصبة (رقيق الأرض) — رواية .
- حبّات الفول (حياة مخبولة) — رواية .
- أشباح المقبرة (شعر) .
- كنت وحدي (شعر)
- الله أساس المعرفة والأخلاق — (فلسفة)
- الفن والتفرد — بحث
- عذراء كفر الشيخ — رواية
- آكلة النيران — قصة
- دفاع عن العقل (فلسفة)
- الحقيقة عند ديكرت واسبنوزا (فلسفة)
- المخسور — قصة
- حتى الكلاب — قصة
- المحقق بين الشك واليقين .
- محمد الرسالة والرسول .

محمد في حياته الخاصة - نشر مكتبة غريب

أبو بكر حوارى محمد - نشر مكتبة غريب

عمرو بن العاص

على مائدة المسيح - نشر مكتبة غريب

فرويد يفسر أحلامك (سلسلة علم النفس للجميع - الناشر
مكتبة غريب)

الله والإنسان والقيمة (المذهب الفلسفى للدكتور نظمي لوقا)
نحو مفهوم إنسانى للإنسان (عرض جديد لمذهب الفلسفى -
مكتبة غريب)

الوصول إلى السعادة - عن برتراند راسل

العالم كما أراه - عن برتراند راسل

الزواج وأخلاقيات الجنس - عن راسل - الناشر مكتبة
غريب .

العقل والمعايير - لاندريه لالند

النمو السيكولوجى للطفل - لفالون

علم النفس التطبيقى - لبرنا نوس

انياب التنين - لابتون سنكلر .

موضوعات الكتاب

الاهداء

المقدمة : لماذا هذه الكتب ؟

الباب الأول : الانسان والأخلاق

١ - الفرق بين الإنسان والكلب !

٢ - ولكنتنا نخلط بينهما أحيانا .

٣ - مجتمع الأقران .

٤ - أطوار الذاتية الموسعة .

٥ - قواعد اللعبة .

٦ - الوظيفة الخلقية .

٧ - الموضوعية ليست بلا ثمن !

٨ - مافوق الموضوعية .

٩ - أهم مراجع الباب الأول

الباب الثاني : وجاءت المسيحية

١ - تلك تأتي أولا .

٢ - ولماذا لا تكفى ؟

٣ - الدعوة الجديدة .

٤ - ولكن كيف ؟

٥ - الباب الضيق .

٦ - طريق الشوك

٧ - الوثن الأكبر .

٨ - الشجرة الطيبة .

٩ - أهم مراجع الباب الثاني .

الباب الثالث : وجاء الاسلام

١ - تلك الجاهلية .

٢ - عقيدة وشريعة .

٣ - من الجور إلى العدل .

٤ - ومكارم الأخلاق

٥ - أهم مراجع الباب الثالث .

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٥٤٧٠

الترقيم الدولي ٨ - ٤١ - ٧٣١٤ - ٩٧٧


ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاطوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

هذا الكتاب

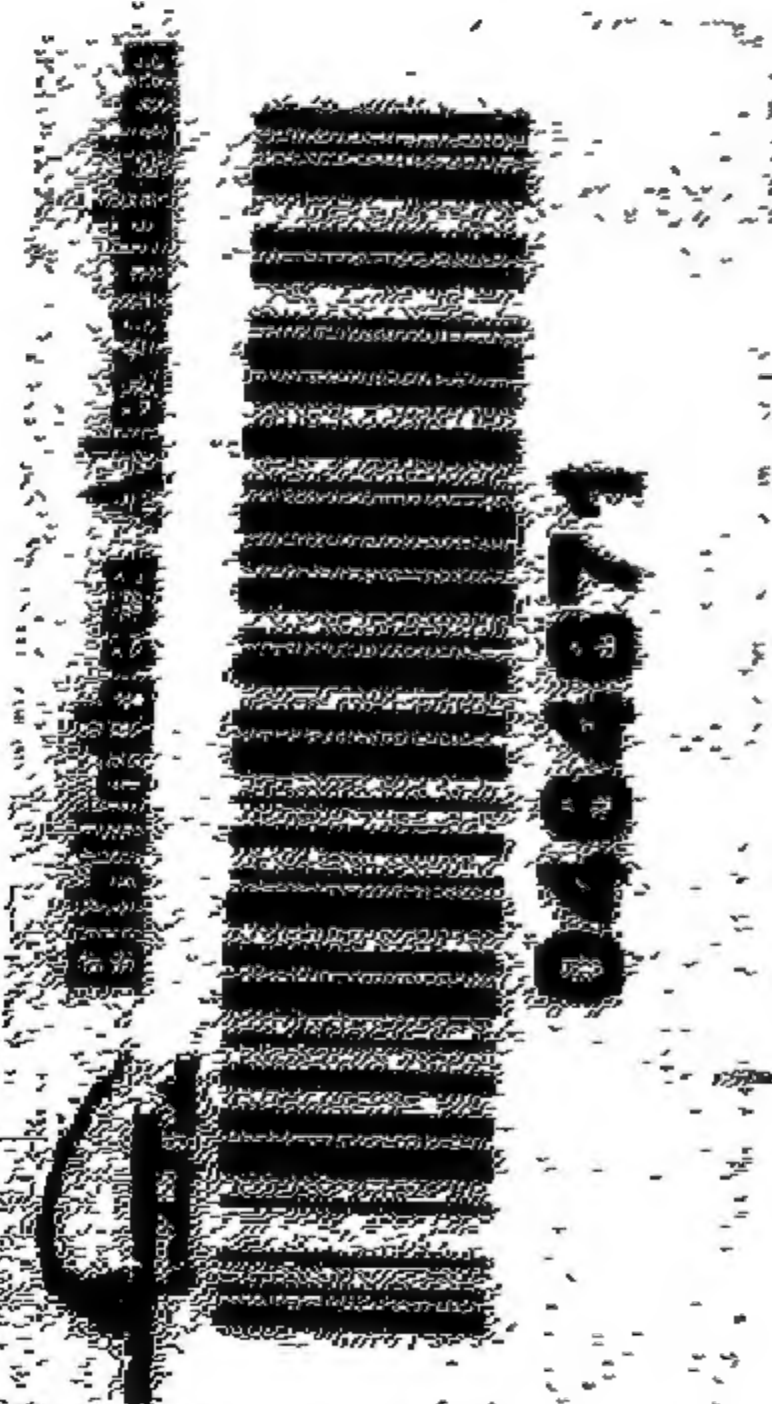
ليس هذا الموقف الفكرى المنصف الملتزم بالأمانة والموضوعية
جديدا على الدكتور نظمي لوقا ، بل هو منهجه الذى تمسك به منذ
ربع قرن .

فبروح الفكر المنصف كتب - وهو المسيحي - عن التراث
الاسلامى عدة كتب لها مكانتها ، لأنه فى نظره نخر انساني للبشرية
جمعاء ، مهما تباينت دياناتها . كما كتب عن المسيحية بنفس هذا
المنهج الموضوعى التحليلي الذى ينبغى ألا تختلف موازينه باختلاف
الموضوعات .

وهذا الكتاب الجديد دراسة مشرقة اتقاء المسيحية بالاسلام
فى الديانتين ، قدم بين يديها بارساء المعايير العقلية التى ينبغى أن
توزن بها هذه الأخلاق الرفيعة . وسيرى القارئ أنه أثبت بالنصوص
والأدلة القاطعة أنهما سباق .

كتاب يقنع العقل ، ويرضى الايمان ، ويدعم الاخاء الانساني
والوطني والقومى على السواء .

الثمن ١٠٠ قرش



دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاطوغلى) القاهرة

ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) - تليفون : ٢٢٠٧٩